



# عناصر الموضوع

٨	مفهوم انسرّ
٩	السر في الاستعمال القرآني
10	الأنفاظ ذات الصلة
14	استواء السر والعلن في علم الله
17	الإسرار المحمود وميادينه
37	أنواع الإسرار المذموم
77	السريوم القيامة
٣٥	المحاسبة على السر
۳۸	أثر إفشاء السرعلى الفرد والمجتمع

#### مفهوم السر

# أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (س ر ر) تدل على إخفاء الشيء. وما كان من خالصه ومستقره (۱). السرُّ: مَا أَسْرَرْت. والسَّريرةُ: عمل السِّرِ من خَيْر أَو شَرِّ (۲). والسَّريرةُ: عمل السِّرِ من خَيْر أَو شَرِّ (۲). والإسرار خلاف الإعلان، وهو: اسم لما يكتمه الإنسان ويخفيه (۳).

# ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرف الراغب الأصفهاني السّر بقوله هو: «الحديث المكتّم في النفس» (٤)، وهو خلاف الإعلان، ويستعمل في الأعيان والمعاني (٥).

ففي الأعيان جاء قوله تعالى: ﴿ وَالْ يَكْبُشْرَىٰ هَذَا غُلَمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [يوسف: ١٩].

وفي المعاني كقوله تعالى: ﴿ قَالُواْ إِن يَسْرِقُ فَقَدْ سَرَقَ أَنَّ لَهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَهَا يُوسُفُ فِي المعاني كقوله تعالى: ﴿ قَالُوا إِن يَسْرِقُ فَقَدْ سَرَقَ أَنَّ لَهُ مُ اللَّهِ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ٧٧].

ويمكن تعريف السربأنه: اسم لما يكتم ويخفى من الأعيان والمعاني من العقائد والنيات والأقوال والأعمال وغيرها(٢).

<sup>(</sup>٦) انظر: السرائر في ضوء القرآن الكريم زينب حسين أبو مور ص١٠-١١.



<sup>(</sup>١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٦٧.

<sup>(</sup>٢) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٢٠١/١٢.

<sup>(</sup>٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/٣٦٣، المصباح المنير، الفيومي ١/٢٧٣، تاج العروس، الزبيدي١/٧.

<sup>(</sup>٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٠٤، وانظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٧٣٦.

<sup>(</sup>٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٠٤.

## السرفي الاستعمال القرآني

وردت مادة (سرر) في القرآن الكريم (٤٤) مرة، يخص موضوعنا منها (٣٢) مرة (١١). والصيغ التي وردت، هي:

المثال	عدد المرات	الصيغة
وْفَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَدِمِينَ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ الله الله	١.	الفعل الماضي
﴿ وَيَعْلَرُمَا ثَيْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ [التغابن:٤]	٧	الفعل المضارع
﴿ وَأَسِرُواْ قَوْلَكُمْ أَوِ آجْهَرُواْ بِهِ اللَّهِ مَا يَعَدُ عَلِيمُ بِذَاتِ ٱلشُّدُودِ اللَّهِ اللهُ المُك ١٣:	١	فعل الأمر
﴿ ثُمَّ إِنِّ أَعَلَنتُ لَكُمْ وَأَسْرَدْتُ لَمُتُمْ إِسْرَارًا اللَّ ﴾ [نوح: ٩]	۲	المصدر
﴿ فَإِنَّهُ. يَعْلَمُ ٱلبِّسَرِّ وَأَخْفَى ١٠٠ ﴾ [طه:٧]	17	الاسم

وجاء السرّ في القرآن على وجهين (٢):

الأول: النكاح: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَكِن لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًا ﴾ [البقرة: ٢٣٥] أي: نكاحًا. الثّاني: ضد العلانية: ومنه قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهُ رَعَلَمُ ٱلبِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه:٧].

<sup>(</sup>١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، محمد فؤاد عبد الباقي ص٣٤٨-٣٤٩.

<sup>(</sup>٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٢٧، بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي ٣/ ٢٠٨.

#### الألفاظ ذات الصلة

## ۱ النجوي:

## النجوى لغة هي:

إسرار الحديث إلى الغير، وما يتفرد به الجماعة والاثنان سرّاً كان أو ظاهراً، وتطلق على القوم المتناجين، ويستوي فيه المفرد، والجمع (١).

## النجوى اصطلاحًا هي:

المسارة بالحديث في خفاء، ولا يخرج معناها في اصطلاح القرآن الكريم عن معانيها في اللغة (٢).

#### الصلة بين النجوى والسر:

النجوى تكون في الحديث وإخفاؤه عن الناس، والسريشمل الكلام وغيره $^{(7)}$ .

#### ٢ الاخفاء:

#### الإخفاء لغة:

الستر والكتمان، يقال: خفيت الشيء أخفيه: كتمته، وأخفيت الشيء: سترته وكتمته، ويقابله الإبداء والإعلان، والإخفاء: تغييب الشيء، وأن لا يجعل عليه علامة يهتدى إليه من جهتها، وهو من الأضداد (٤).

#### والإخفاء اصطلاحًا هو:

لا يختلف عن معناه اللغوي، الذي يدل على الستر وتغييب الشيء، وأن لا يجعل عليه علامة يهتدي إليه من جهتها (٠٠).

#### الصلة بين الإخفاء والسر:

السر هو: اسم لما يكتمه الإنسان ويخفيه على جهة العزيمة، وأما الإخفاء فهو: السر الذي

<sup>(</sup>١) انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٥٩٥.

<sup>(</sup>٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠١/٩.

<sup>(</sup>٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٦٣.

<sup>(</sup>٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزّجاج ١/ ٣٥٤، مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٠٢، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٢٣٤، تاج العروس، الزبيدي ٣٧/ ٥٦٤.

<sup>(</sup>٥) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٨٩، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٤٢، الكليات، الكفوى ص ٥١٤.

لم يبلغ حد العزيمة<sup>(١)</sup>.

#### ٣ الكتمان:

#### الكتمان لغة:

الإخفاء والستر(٢)، يقال: كتمت الحديث كتمًا وكتمانًا، أي: سترته، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَكُنُونَ اللهِ عَالَى اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يَكُنُونَ اللهِ عَلَى اللهِ تعالى: ﴿وَلَا اللهِ تعالى: ﴿وَلَا اللهِ تعالى: ﴿وَلَا اللهِ تعالى: ﴿وَلَا

#### الكتمان اصطلاحًا هو:

لا يختلف عن معناه اللغوي الدال على إخفاء الشيء حتى لا يرى ولا يعلم (٤).

الصلة بين الكتمان والسر:

فرّق أبو هلال العسكري بين السر والكتمان بقوله: إن السر أعم من الكتمان؛ لأن الكتمان يختص بالمعاني غالبًا، كالإسرار والإخبار؛ ولأن الكتمان لا يستعمل إلا فيهما في الغالب(٥٠)، لقوله تعالى: ﴿وَلاَ يَحِلُ لَمُنَّ أَنْ يَكُتُمُن مَا خَلَق اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

فقد نهى الله تعالى النساء عن كتمان ما في الأرحام، والسر يختص بالأعيان غالبًا؛ لأن الأصل في السر تغطية الشيء بغطاء، ثم استعمل في غيرها تجوزًا (٢٠٠٠).

<sup>(</sup>١) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٦٣.

<sup>(</sup>٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٢٠٥، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٥٢٥.

<sup>(</sup>٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٥٧.

<sup>(</sup>٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ١٤٠، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي ٣/ ١٠٤، لباب التأويل، الخازن ١/ ٩٧.

<sup>(</sup>٥) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٤٤٧.

<sup>(</sup>٦) انظر: المصدر السابق ص ٤٤٨.

## استواء السر والعلن في علم الله

وهذه الآية أبلغ آية في استواء علم الله بالسر والجهر، سواء من أسر القول ومن جهر به، و من هو مستخف بالليل ، أي : من هو مستتر بالليل، والليل أستر من النهار، ومن هو سارب بالنهار ، أي : من هو ظاهر بالنهار في طريقه، متصرف في حوائجه (۱). وتعد صفة العلم إحدى الصفات الذاتية لله جل ذكره؛ لأن الله هو العليم الذي أحاط علمه بالعالم العلوي، والسفلي، ولا يخلو عن علمه مكان، ولا زمان ويعلم الغيب، والشهادة، والظواهر، والبواطن، والجلي، والخفي، قال الله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ الله والخفي، قال الله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ الله والخفي، قال الله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ الله والخفي، قال الله تعالى:

والنصوص في ذكر إحاطة علم الله،

(۱) انظر: غريب القرآن، ابن قتيبة ص ٢٢٥، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١٤١/٣، جامع البيان، الطبري ٢٦١/١١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨٢/١٨.

وقد جعل الله تعالى العلم بالسر دليلاً على أولهيته سبحانه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ ۗ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَاتَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٣].

قال أبو جعفر الطبري: «يقول تعالى ذكره: إن الذي له الألوهة التي لا تنبغي لغيره، المستحق عليكم إخلاص الحمد له بآلائه عندكم، أيها الناس، الذي يعدل به كفاركم من سواه، هو الله الذي هو في السماوات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم، فلا يخفى عليه شيء، والذي يستحق عليكم الحمد، ويجب عليكم إخلاص العبادة له، هو هذا الذي صفته، لا من لا يقدر لكم على ضر ولا نفع، ولا يعمل شيئاً، ولا يدفع عن نفسه سوءاً أريد به (٢).

كما قد جعل الله تعالى العلم بالسر دليلاً

بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٣١].

<sup>(</sup>٢) جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٦١.

على أن القرآن من عنده سبحانه وتعالى: 
﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَمْلَمُ ٱليِّرَ فِي ٱلسَّمَنوَتِ
وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَفُورًا رَّحِيًا ﴾ [الفرقان: ٢].

ولما كان السر يغلب على الأعمال المذمومة، فقد بين الله تعالى أنه يعلم السر والجهر للمؤمنين والكافرين والمنافقين وجميع المخلوقين، وأنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر، وسيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، كما في قوله تعالى: ﴿يَمْلُونَ وَمَا نُمُلِنُونَ وَالله عليه النفاين: ٤].

وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهُ يَعْلَمُ مَا يُعْلَمُ مَا يُعْلَمُ مَا يُعْلِمُ اللهِ عَلَمُ مَا يُعْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٧](١).

كما أن الله تعالى يعلم إسرار من يسر بمودة الكفار: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَنَّغِدُوا عَدُوى وَعَدُوكُم الْكِفَار: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَنَّغِدُوا عَدُوى وَعَدُوكُم وَعَدُوكُم أَوْلِيَا أَهُ الْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَة وَقَدَ مَكُمُ مِن الْحَقِ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمُ لَا تُومِنُوا بِاللّهِ رَبِيكُم إِن أَنْهُمُ خَرَجْتُم جِهَدُا فِي سَبِيلِي أَن تُومِنُوا بِاللّهِ رَبِيكُم إِن أَنْهُمُ خَرَجْتُم جِهَدُا فِي سَبِيلِي وَالْمَودَة وَالنَا أَعَلَمُ بِمَا لَكُومِهَا أَعْدُومِها اللّهُ وَمَن يَفْعَلُهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَيلِي السَيلِي المَودَة وَالنَا أَعْلَمُ بِمَا السَيلِي اللّهُ وَمَن يَفْعَلُهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَيلِيلِ ﴾ [المستحنة: ١] (١).

وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اَرْنَدُواْ عَلَى آرْنَدُواْ عَلَى آدَنَدُواْ عَلَى آدَنَدُواْ عَلَى آدَنَدُواْ الْمَدَى آدَنَدُولُ اللَّهُمُ اللَّهُدَى اللَّهَ اللَّهُمُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُمُ الللَّهُمُ اللَّهُمُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُمُ اللَّهُمُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُمُ اللَّهُمُ اللَّهُ اللَّهُمُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُمُ اللَّهُ اللَّهُمُ اللَّهُ اللَّهُمُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُمُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُمُ اللَّهُ اللَّهُمُ الللّهُ اللَّهُمُ الللْمُواللَّهُمُ اللَّهُمُ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ ال

كما أن الله يعلم السر مهما تخفى به صاحبه واستخدم من وسائل التخفي والكتمان في ذلك ، كما في قوله: ﴿ أَلاَ إِنَّهُمُ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلاَ حِينَ يَسْتَغْشُونَ يَنْابَهُمْ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمُ لَيْ يَنْابَهُمْ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمُ لِيَا الله عَلَمُ مَا يُسِرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمُ لِينَا تِعَالَى بِذَاتِ الصَّدُورِ ﴾ [هود: ٥] (٤) ، بل قد بين تعالى أنه يعلم ما هو أخفى من السر: ﴿ وَإِن جَعَهَرً اللهُ لاَ إِلَّهُ اللهُ لاَ إِلَهُ إِلَّا مُؤْلِنُ فَإِنَّهُ مَا يُسَمَّا مُلْمُسُنَى ﴾ [طه: ٧ - ٨].

والسر في هذه الآية فيه ستة تأويلات: أحدها: أن (السر) ما حدَّث به العبد غيره في السر، (وأخفى) من السر، مما أضمره في نفسه، ولم يحدِّث به غيره، قاله ابن عباس. الثاني: أن السر ما أضمره العبد في نفسه، وأخفى منه مالم يكن ولا أضمره أحد في

الثالث: يعلم أسرار عباده، وأخفى سر

نفسه ، قاله قتادة وسعيد بن جبير.

<sup>(</sup>٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٨٢، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١١٤/٥، النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٣٠٣، مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٥٦٣.

<sup>(</sup>٤) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤٥٧.

<sup>(</sup>۱) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ۱۹۰/۲۰، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤٨٤/٤. السراج المنير، الشربيني ٢/٢٣٢.

<sup>(</sup>۲) انظر: جامع البيان، الطبري ۲۳/ ۱۷، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ۸/ ۱۱۵.

نفسه عن خلقه، قاله ابن زيد.

الرابع: أن السر ما أسره الناس، وأخفى: الوسوسة، قاله مجاهد.

الخامس: أن السر ما أسره من علمه وعمله السالف، وأخفى: وما يعلمه من عمله المستأنف، وهذا معنى قول الكلبي.

السادس: السر: العزيمة، وما هو أُخْفى هو: الهم الذي دون العزيمة.

والصحيح من هذه المعاني هو القول الأول، أي: أنه تعالى يعلم السر، وأخفى من السر، في الأحوال التي يجهر فيها القائل بالقول لإسماع مخاطبه، أي: فهو لا يحتاج إلى الجهر؛ لأنه يعلم السر وأخفى، وهذا أسلوب متبع عند البلغاء شائع في كلامهم بأساليب كثيرة (١٠).

وقد رجح الإمام ابن جرير الطبري هذا القول في ذلك، القول بقوله: «والصواب من القول في ذلك، قول من قال: معناه: يعلم السر وأخفى من السر؛ لأن ذلك هو الظاهر من الكلام.

والصواب من القول في معنى أخفى من السر أن يقال: هو ما علم الله مما أخفى عن العباد، ولم يعلموه مما هو كائن ولم يكن؛

(۱) انظر: جامع البيان، الطبري ۲۷۲/۱۸، معالم التنزيل، البغوي ۴/۱۷، النكت والعيون، الماوردي ۳/ ۳۹، تفسير القرآن، السمعاني ۳۲۱/۳، الكشاف، الزمخشري ۳/ ۵، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ۳۷، مفاتيح الغيب، الرازي ۲۸/ ۷۸، التحرير والتنوير، ابن عاشور ۱۸۹/۱۸.

لأن ما ظهر وكان فغير سر، وأن ما لم يكن وهو وهو غير كائن فلا شيء، وأن ما لم يكن وهو كائن فهو أخفى من السر؛ لأن ذلك لا يعلمه إلا الله، ثم من أعلمه ذلك من عباده (٢).

ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَرُ يَمْلُواْ أَنَ اللّهَ يَمْلُمُ سِرَّهُمْ وَنَجُونِهُمْ اللّهَ وَنَجُونِهُمْ وَأَنَ اللّهَ عَلَّمُ اللّهُ يَمْلُمُ سِرَّهُمْ وَنَجُونِهُمْ اللّهُ وَأَنَ اللّهِ عَلَّمُ الْغُمُوبِ ﴾ [التوبة: ٢٨]؛ لأن السر: ما حدَّث به الرجل نفسه أو غيره في مكان خال، والنجوى: ما تكلموا به فيما بينهم (٣).

وفي الآية تهديد ووعيد للمنافقين الذي يسرون الكفر ويعلنون الإيمان مع علمهم بأنه تعالى يعلم ذلك من حالهم، كما يعلم الظاهر، وأنه يعاقب عليه كما يعاقب على الظاهر؛ لأن الله علام الغيوب، والذي تقتضي ذاته تعالى العلم بجميع الأشياء، فكيف يمكن إخفاء السر والنجوى منه (٤).

ثم أمر الله تعالى المشركين بأن يسروا القول أو يجهروا، وأن ذلك عنده سواء؛ لأن الله عليم بذات الصدور، وأنه يعلم تفاصيل خلقه، قال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا فَوْلَكُمْ أَوِا جَهَرُوا بِهِ الله عَلَيم بَدَات الصُّدُور ﴿ وَأَسِرُّوا فَوْلَكُمْ أَوِا جَهَرُوا بِهِ اللهِ عَلَيم مَنْ خَلَق وَهُو

<sup>(</sup>٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٧٤.

<sup>(</sup>٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٢٦٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٢١.

<sup>(</sup>٤) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/٣٩٣، مفاتيح الغيب، الرازي ١٠٩/١٠.

ٱللَّطِيفُ ٱلْخَيِدُ ﴾ [الملك: ١٣ - ١٤](١).

ثم قال تعالى مخبراً عن إحاطة علمه بخلقه واطلاعه عليهم وسماعه كلامهم، ورؤيته مكانهم حيث كانوا وأين كانوا: ﴿ أَنَّ اللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَحْوَنُ مِن نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا مَسَيةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا مَسَيةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْفَى مِن ذَلِكَ وَلَا مُصَلِقًا إِلَّا هُو مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا مُمْ مُنْ يَبَتْهُم بِمَا عَمِلُوا بَوْمَ الْمِسْتَةِ إِنَّا الله عَلَى الله ع

أي: مطلع عليهم يسمع كلامهم وسرهم ونجواهم ورسله أيضاً ، مع ذلك تكتب ما يتناجون به مع علم الله به وسمعه لهم، كما قال تعالى: ﴿ أَلَرْ يَمْلُوّا أَنَ اللّهَ عَلَامُ يَمْلُو أَنَ اللّهَ عَلَامُ اللهَ اللهَ اللهُ عَلَامُ اللهُ الله

وقال سبحانه: ﴿ أَمْ يَصْبُونَ أَنَا لَا نَسْمَعُ مِرَهُمْ وَقَالُ سَبِحانه: ﴿ أَمْ يَصْبُونَ أَنَا لَا نَسْمَعُ مِرَهُمُ اللَّهُ مَا يَكُنُبُونَ ﴾ مِرَهُمْ وَيَخُونُهُمْ وَيَكُنُبُونَ ﴾ [الزخوف: ٨٠].

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره الآية: «ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علمه تعالى ولا شك في إرادة ذلك، ولكن سمعه أيضاً مع علمه بهم محيط بهم، وبصره نافذ فيهم، فهو

سبحانه وتعالى مطلع على خلقه لا يغيب عنه من أمورهم شيء، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ؟ لأن الله بكل شيء عليم (٢).

وقد أخبر الله تعالى أنه يعلم السر والنجوى، وأن هناك من رسله من يكتب ذلك؛ ليعلموا أن علم الله بما يسرون علم يترتب عليه أثر فيهم، وهو مؤاخذتهم بما يسرون؛ لأن كتابة الأعمال تؤذن بأنها ستحسب لهم يوم الجزاء، والرسل: هم الحفظة من الملائكة ؛ لأنهم مرسلون لتقصي أعمال الناس، ولذلك قال: ﴿ مَا يَلْفِطُ مِن قَرْلِ اللّهِ عَلَيْ مَا يَلْفِطُ مِن قَرْلِ اللّهِ عَلَيْ وَرَبُّ اللّهُ عَلَيْ اللّهُ عَلَيْ وَرَبُّ اللّهُ عَلَيْ وَلَهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَيْ وَرَبُّ اللّهُ عَلَيْ وَلَهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَيْ وَلَهُ اللّهُ الّهُ اللّهُ اللللّهُلّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّ

كما هدد الله وتوعد من ينكر علمه بالسر والعلن، كما في قوله تعالى: ﴿ لَاجَرَمَ أَتَ اللَّهَ يَعْلَرُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِرَبُ اللَّهُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يَحِبُ اللَّهُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يَحِبُ اللَّهُ اللَّاللَّهُ اللَّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الل

وقولُهُ: ﴿ فَلَا يَخُزُنَّكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُعْرُبُونَ ﴾ [يس: ٧٦].

ولا جرم معناه: حق وواجب، ولا بد ولا محالة، أي: حقًّا أن الله يعلم سرهم وعلانيتهم فيجازيهم، وهو وعيد.

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكَبِّرِينَ ﴾ يجوز أن يريد المستكبرين عن التوحيد يعني: المشركين، ويجوز أن يعم كل مستكبر،

<sup>(</sup>۱) انظر: جامع البيان، الطبري ٥١١/٢٣، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥٠١٥، الكشاف، الزمخشري ٤/٥٧٩، مفاتيح الغيب، الرازي ٥٨٩/٣٠، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/٣٠٠.

<sup>(</sup>٢) تفسير القرآن العظيم ٨/ ٧٣.

<sup>(</sup>٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥ / ٢٦٣.

ويدخل هؤلاء تحت عمومه(١).

وقد وردت آيات تبين أن الله تعالى يستوي عنده السر والعلن بألفاظ أخرى بمعنى السر:

أُولًا: بلفظ الكتمان ،كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَكَادَمُ أَنْبِتْهُم بِأَسْمَآهِمٍ أَ فَلَمَّآ الْمَا أَفُلُ الْمَا أَفُلُ الْمُتَاهُم بِأَسْمَآهِمٍ أَقُلُ اللَّمَ أَقُلُ لَكُمْ إِنِّ أَعْلَمُ غَيْبَ الْسَهَوَتِ وَأَلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا نُبْدُونَ وَمَا كُمْتُمْ لَاسْمَوْنَ وَوَا كُمْتُمْ تَكُمُ مَا نُبْدُونَ وَمَا كُمْتُمْ تَكْمُنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَنَلْتُمْ نَفْسًا فَأَذَرَهُ ثُمْ فِيمًا وَاللّهُ مُغْرِجُ مَا كُنتُمْ تَكُنّهُونَ ﴾ [البقرة: ٧٧]. ﴿ مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلّا الْبَكَثُمُ وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تُبَدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ [المائدة: ٩٩].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَمْلُمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَمْلُمُ مَا تَكُنُّونَ ﴾ [الأنبياء:

وقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُرُ جُنَاحُ أَن مَدَخُلُواْ بُيُوتًا عَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَنَعٌ لَكُرُّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونِ وَمَا تَكْتُمُونِ ﴾ [النور: ٢٩]. وغيرها من الآيات.

ثانيًا: بلفظ الإخفاء: ﴿ يَتَّو مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبَدُّوا مَا فِي آننُسِكُمْ أَوَ
تُخْفُوهُ يُحَاسِبَكُم بِدِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاكُ
وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاهُ وَاللّهُ عَلَى كُلِ شَيْءٍ قَدِيرُ ﴾

(۱) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨٩/١٧، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/١٩٤، الكشاف، الزمخشري ٢/٢١، المحرر الوجيز، ابن عطمة ٣/٣٨٦.

[البقرة: ٢٨٤].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَا أَعْلَا بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَغْفَيْتُمْ وَمَا أَغْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ﴾ [الممتحنة: ١].

وكُذلك قوله تعالى: ﴿ سَوَآهُ مِنكُرُ مَّنُ أَسَرً ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفِ بِٱلْشِلِ وَسَارِبُ بِٱلنَّهَارِ ﴾ [الرعد: ١٠](٢).

فالله سبحانه في كبريائه، وفي علوه، محيط بكل صغيرة وكبيرة في الوجود.. يتساوى لديه في ذلك بعيد الأمور وقريبها، خفيها وظاهرها، إذ لا قرب ولا بعد عند من احتوى الوجود كله، ولا خفاء ولا ظهور لدى من ملك الأمر جميعه ؛ لأنه: ﴿مُوَ لَلْمَالِمُنَّ وَهُوَ بِكُلِّ شَقَءٍ لَا لَا لَهُ وَالْبَاطِنُ أَوْهُو بِكُلِّ شَقَءٍ عَلِيمً ﴾ [الحديد: ٣](٣).

ثالثًا: بلفظ الإكنان: ففي التنزيل العزيز: ﴿ وَأَوْ أَكُنَاتُمْ فِي آنفُسِكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٣٥] أي: أخفيتم.

ويترتب على أن الله بكل شيء عليم، وأنه يستوي في علمه السر والجهر: أن تظهر صفة المراقبة لله تعالى لدى العبد في السر والعلن، وذلك أن العبد إذا استشعر عظمة علم الله وسعته، وشموله لكل ما خلق الله سبحانه، وأنه يعلم السر والجهر، فإنه يعيش دائماً يراقب الله الذي يعلم السر وأخفى،

<sup>(</sup>٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٣٦٦/١٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٨٩/٩.

<sup>(</sup>٣) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطب ٧/ ٧٩.

ويعمل على إصلاح سريرته وعلانيته في كل وقت وحين، كما يدفعه ذلك لأن يجتنب الكبائر والصغائر ويتقي الله في خطرته خلوته ووحدته، كما يفعل ذلك في حضرته وشهوده (١٠).

## الإسرار المحمود وميادينه

للإسرار المحمود ميادين نبينها فيما يأتي:

# أولًا: الإسرار بالدعوة:

تعتبر الدعوة السرية أحد أطوار الدعوة الإسلامية ومبتدأها، في كل وقت وحين، وهي سنة المرسلين والأنبياء جميعاً، وكذلك الدعاة المصلحين، وقد جسد ذلك نبي الله نوح عليه السلام عندما قال: ﴿قَالَ رَبِيانِ دَعُوتُهُمْ يَتُكُونُهُ اللهُ وَعَلَيْكُونُهُ اللهُ وَعَلَيْكُونُهُ اللهُ اللهُ وَعَلَيْهُ السلام عندما قال: ﴿قَالَ رَبِيانِ دَعُوتُهُمْ يَتَكُونُونُهُ اللهُ وَعَلَيْكُونُ وَهَا اللهُ وَعَلَيْكُونُ وَهَا اللهُ وَعَلَيْكُونُ وَهَا اللهُ وَعَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلَيْكُمُ اللهُ عَلَيْكُمُ اللهُ عَلَيْكُمْ اللهُ وَعَلَيْكُمْ اللهُ وَعَلَيْكُمْ اللهُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللهُ اللهُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللهُ اللهُ وَاللهُ وَلِي اللهُ وَلِيهُ وَاللهُ وَلِهُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللهُ وَلِهُ وَلِهُ وَاللهُ وَاللهُ وَلِهُ وَلِهُ وَلِهُ وَلِهُ وَاللهُ وَاللهُ وَلِهُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللهُ وَلِهُ وَاللهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَلِهُ وَلِهُ وَلِهُ وَلِهُ وَلِهُ وَلّهُ وَاللّهُ وَلِهُ وَلِلْهُ وَلِهُ وَلِلْلّهُ وَلِلْلِهُ وَلِهُ وَلِهُ وَلِهُ وَلِلْهُ وَلِلْ وَلِلْهُ وَلِل

فقد ذكر أولًا أنه دعاهم بالليل والنهار، ثم ذكر أنه دعاهم جهاراً، ثم دعاهم في السر والعلن، أفراداً وجماعات، والحاصل: أنه دعاهم ليلاً ونهاراً في السر، ثم دعاهم جهارًا(٢٠).

قال الإمام ابن عطية: «الجهار دعاؤهم في المحافل ومواضع اجتماعهم، والإسرار

<sup>(</sup>۲) انظر: جامع البيان، الطبري ۲۳۱/ ۲۳۱، تفسير القرآن، السمعاني ۲/ ۵۰، أنوار التنزيل، النيفي البيضاوي ۲٤٨/٥، مدارك التنزيل، النسفي ۳ / ۵٤۳.

<sup>(</sup>۱) انظر: بحث: مفهوم الأسماء والصفات سعد ندا، منشور في مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ٤٦، العام ١٤٠٠- ١٤٠٠.

دعاء كل واحد على حدته، فقد اتبع نوح صلى الله عليه وسلم كل الأساليب فجهر بالدعوة تارة، ثم زاوج بين الإعلان والإسرار تارة أخرى»(١).

ويتضح من خلال الآيات أن نوحًا عليه السلام لم يترك سبيلاً للدعوة إلا فعلها، فاستعمل طرقاً ثلاثة:

- 1. بدأهم بالمناصحة في السر، فعاملوه بما ذكر في الآية من سد الآذان، والاستغشاء بالثياب، والإصرار على الكفر، والاستعظام عن سماع الدعوة.
- جاهرهم بالدعوة، وأعلنهم بها على وجه ظاهر لا خفاء فيه.
- جمع بين الإعلان والإسرار بحسب الأحوال والظروف (٢).

وما من نبي من الأنبياء إلا وجمع في دعوته بين السرية والجهرية، ومنهم سيد الخلق النبي محمد صلى الله عليه وسلم فقد بدأ دعوته بالسرية: فقد اتخذ صلى الله عليه وسلم دار الأرقم بن أبي الأرقم لتكون مقراً للدعوة السرية للدين الجديد، وقد استمرت هذه الدعوة ثلاث سنوات، وما

- (١) انظر: المحرر الوجيز ٥/٣٧٣.
- (۲) انظر: جامع البيان، الطبري ۲۳ / ۲۳۱، تفسير القرآن، السمعاني ۲ / ۰۵، مدارك التنزيل، البيضاوي النسفي ۳۸ / ۲۵۱، أنوار التنزيل، البيضاوي ۲۵۸ / ۲۵۱، التحرير والتنوير، ابن عاشور ۲۹ / ۲۹۱، تفسير المراغي ۸۲ / ۲۹.

زال النبي صلى الله عليه وسلم مستخفياً هو والمسلمون في دار الأرقم حتى نزل قوله تعالى: ﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ اللَّهُ مَرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤].

فجهر النبي صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه بالدعوة وبلغوها لجميع الناس(٣). ولم تكن سرية الدعوة في أول أمرها خوفاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسه، ولكنها إلهام من الله لتعليم الدعاة من بعده، وإرشادهم إلى مشروعية الأخذ بالحيطة والأسباب الظاهرة، وما يقرره التفكير والعقل السليم من الوسائل التي ينبغي أن تتخذ من أجل الوصول إلى غايات الدعوة وأهدافها. على أن لا يتغلب كل ذلك على الاعتماد والاتكال على الله وحده، وعلى أن لا يذهب الإنسان في التمسك بهذه الأسباب مذهبا يعطيها معنى التأثير والفعالية في تصوره وتفكيره، فهذا يخدش أصل الإيمان بالله تعالى، فضلاً عن أنه يتنافى مع طبيعة الدعوة إلى الإسلام.

ومن هنا تدرك، أن أسلوب دعوته صلى الله عليه وسلم في هذه الفترة، كان من قبيل السياسة الشرعية بوصف كونه إماماً، وليس من أعماله التبليغية عن الله تعالى بوصف كونه نبيًا.

<sup>(</sup>٣) انظر: سبل الهدى والرشاد، محمد الصالحي الشامي، ص ١٦.

وبناء على ذلك: فإنه يجوز لأصحاب الدعوة الإسلامية، في كل عصر أن يستعملوا المرونة في كيفية الدعوة – من حيث السرية والكتمان أو من حيث الجهر والإعلان، أو اللين والقوة – حسبما يقتضيه الظرف وحال العصر الذي يعيشون فيه، وهي مرونة حددتها الشريعة الإسلامية، اعتماداً على واقع سيرته صلى الله عليه وسلم، على أن يكون النظر في كل ذلك إلى مصلحة المسلمين ومصلحة الدعوة الإسلامية (1).

## ثانيًا: إسرار الإنفاق:

دعت الآيات القرآنية الكريمة إلى الإنفاق في سائر الحالات: في السر والجهر، وفي الليل والنهار، وفي السراء والضراء، وفاضلت أحياناً بين نفقة السر والعلن، وبينت فضل الصدقة في كل الأحوال، ذلك أن الله سبحانه وتعالى وجّه عباده إلى الإنفاق والمبادرة فيه سرّاً وعلانية بالليل والنهار، في السراء والضراء، في الليل والنفار.

فالإنفاق سرّاً حتى لا يقع الإنسان فريسة المباهاة؛ والإنفاق علناً كي يعطي غيره من القادرين أسوة حسنة، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم من قبل أن يأتي يوم (هو

يوم القيامة ) لا بيع فيه ولا خلال ، أي : من قبل أن يأتي اليوم الذي لا تنفع فيه فدية ، ولا تجدي فيه صداقة ، فلا يشفع خليل ولا يصفح عن عقابه لمخالته لصديقه ، بل هناك العدل والقسط (١٠) ، فقد قال تعالى: ﴿ قُل لِمِبَادِى اللَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا العَمَلُوةَ وَيُنوفُوا مِمّا لَوَمَلُونَهُم سِرًا وَعَلَانِية مِن قَبَلِ أَن يَأْتِي يَوْمٌ لَا بَيّمٌ وَيَهِ وَلَا خِلَالُ ﴾ [إبراهيم: ٣١].

ويستحب إعلان الواجب، وإخفاء المتطوع به، إلا في محل الاقتداء لأهل  $||\mathbf{k}|| = \mathbf{k}$ 

والمراد بالسر في الآيات: ما خفي، وبالعلانية ما ظهر، وهو قول جمهور المفسرين، الثاني: أن السر في التطوع، والعلانية في الفرض(٤).

<sup>(</sup>۱) انظر: فقه السيرة النبوية، محمد سعيد البوطي ص ٢٩، الدعوة الإسلامية في عهدها المكي مناهجها وغاياتها، رؤوف شلبي ص ٣٠١.

<sup>(</sup>۲) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤٣٨/٤، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٩٩، تفسير المراغي ١٥٤/١٣، تفسير الشعراوي ١٥٤/١٨.

<sup>(</sup>٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٩٩.

<sup>(</sup>٤) انظر: النكت والعيون، المآوردي ٣/ ١٣٧، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٢، البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٤٣٧.

الخيل وارتباطها في سبيل الله، فكان أبو هريرة رضي الله عنه إذا مر بفرس سمين قرأ هذه الآية<sup>(۱)</sup>.

ولكن الآية عامة في الذين ينفقون في سبيل الله تعالى، وفي الذين يعممون الأوقات والأحوال بالصدقات، فكلما نزلت بهم حاجة محتاج عجلوا قضاءها ولم يؤخروها ولم يعلقوها بوقت ولا حال، وهذا هو أحسن الوجوه في معنى الآية (٢).

ثم ذكر الله أن الإنفاق في السراء والضراء، أي في الشدة والرخاء، والمنشط والمكره، والصحة والمرض، والليل والنهار، وفي السر والعلانية، وفي جميع الأحوال والأوقات صفة من صفات أهل الجنة، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِيكَ يُنفِعُونَ أَمْوَلَهُم بِاللَّيْلِ وَٱلنّهَارِ سِئًا يُنفِعُونَ أَمْوَلَهُم بِاللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِئًا وَعَلَانِكَ فَلَهُم أَجْرُهُم عِندَ رَبِّهِم وَلا يَحْوَقُ عَلَيْهِم وَلَا هُمْم يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: خَوْفُ عَلَيْهِم وَلَا هُمْم يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

وكذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كَانَتُ وَاللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَكُمْ مَ سِرًّا وَعَلَانِيَةُ يَرْجُونَ فِجَنَرَةً لَن

(١) انظر: أسباب نزول القرآن، الواحدي ص ٩٠، العجاب في بيان الأسباب، ابن حجر العسقلاني ١/ ٦٣٤.

(۲) انظر: النكّت والعيون، الماوردي ٣٤٧/١، التفسير الوسيط، الواحدي ٣٩٢/١، تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٢٧٨.

تَكُبُّورَ ﴾ [فاطر: ٢٩].

أي: يرجون ثوابًا عند الله لا بد من حصوله (۳).

وفي الآية إشارة إلى أن صدقة السر أفضل من صدقة العلانية؛ وذلك لأنه قدم الليل على النهار، والسر على العلانية في الذكر، كما فضل الله صدقة السر على صدقة الجهر في قوله: ﴿إِن تُبُّدُوا الصَّدَقَتِ فَيْعِمًا مِنَّ فَيْ وَلَا تُجْمَدُوا الْفَسَدَقَتِ فَيْعِمًا مِنَّ وَلِن تُخْفُوهَا وَتُوْتُوهَا الْفُحَدَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمُّ وَلِن تُخْفُوهَا وَتُوْتُوهَا الْفُحَدَرَاءَ فَهُو خَيْرٌ لَكُمُّ وَلِن تُخْفُوهَا وَتُوْتُوهَا الْفُحَدَرَاءَ فَهُو خَيْرٌ لَكُمُّ وَالله بِمَا وَيُكَفِّونَ خَيِيرٌ فِي [البقرة: ٢٧١](٤).

قد جعل الله ذلك من صفات أولي الألباب.

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا الْبَيْكَةَ وَجَهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوْةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَفْنَهُمْ سِرًا وَعَلاَئِنَةُ وَيَدْرَهُونَ بِالْمُسَنَةِ السَّيِّثَةَ أُولَتِهِ لَكَ لَمُمُ عُقْبَى الدّارِ اللهِ جَنْتُ عَدْنِ يَشْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآيِهِمْ وَأَزْوَجِهِمْ وَدُرِيَّتِهِمَ وَالْمَلْتَهِكَةُ يَدَّخُلُونَ عَلَيْهِم مِن كُلِ بَابِ الله عد: ٢٢ - ٢٤].

كما جعل سبحانه الإنفاق سرًّا وجهرًّا من صفات الكمال البشري ، كما في قوله: ﴿ صَرَبَ اللّهُ مَثَلًا عَبَدًا مَمَلُوكًا لَا يَقَدِرُ عَلَىٰ مَنَى مِ وَمَن رَزَقَننهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُو يُنفِقُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُو يُنفِقُ مِنْهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُو يُنفِقُ مِنْهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُو يُنفِقُ مِنْهُ مِنَّا وَرَقًا حَسَنًا فَهُو يُنفِقُ مِنْهُ مِنَّا وَجَهَرًّا هَلْ يَسْتَوُونَ أَلَى اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ اللهِ ال

<sup>(</sup>٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٦٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٣٠٥.

<sup>(</sup>٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ٧١.

سواء<sup>(۲)</sup>.

# ثالثًا: الإسرار بالدعاء:

أمر الله تعالى بالإسرار بالدعاء في قوله: ﴿ اَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿ وَلَا نُفْسِدُوا فِ الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ فَرِيبٌ مِنَ اللّهِ وَالْعَراف: ٥٥ - قَرِيبٌ مِن المُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٥ - ٥٥].

كما بيَّن الله تعالى حال الداعين بقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُمْ مِن ظُلُمُنتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدَعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَمِنْ أَنْجَننَا مِنْ هَلاِهِ مَلَنَكُونَنَّ مِن ٱلشَّلَكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٣].

لأن الإسرار بالدعاء أبعد من الرياء وأدل على الإخلاص؛ لأن الدعاء حقيقته النداء لطلب مهم، واستعمل مجازاً في العبادة لاشتمالها على الدعاء والطلب بالقول أو بلسان الحال، كما في الركوع والسجود، مع مقارنتها للأقوال، وهو إطلاق كثير في القرآن؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (الدعاء هو العبادة)(").

أَحَتُرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٧٥].

فكما لا يستوي العبد الذي لا يملك شيئاً ولا يقدر عليه، والرجل الحر الذي قد رزقه الله رزقاً حسناً فهو ينفق منه سرًّا وجهراً؟ فكذلك لا يستوي الكافر العامل بمعاصي الله المخالف أمره، والمؤمن العامل بطاعته (١).

ويلاحظ من خلال الآيات السابقة أنها تشير وتحث على الإنفاق الجماعي الذي يستفاد من خطاب الجمع في قوله تعالى: ﴿ قُل لِمِبَادِى الَّذِينَ عَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَيُعِمُونُ الصَّلَوٰةَ وَيُعِمُونُ مِمَّا رَزَقَنَهُمُ سِرُّا وَعَلَانِيَةً ﴾ [إبراهيم: وَيُمُفِقُوا مِمَّا رَزَقَنَهُمُ سِرُّا وَعَلَانِيَةً ﴾ [إبراهيم: ٣]. وغيرها من الآيات.

قال سيد قطب في ظلال هذه الآية:

« الذين ينفقون أموالهم».. هكذا بوجه عام يشمل جميع أنواع الأموال.. «بالليل والنهار. سرًّا وعلانية».. لتشمل جميع الأوقات وجميع الحالات.. «فلهم أجرهم عند ربهم».. هكذا إطلاقاً. من مضاعفة المال ، وبركة العمر ، وجزاء الآخرة ، ورضوان الله. «ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون».. لا خوف من أي مخوف، ولا حزن من أي محزن.. في الدنيا وفي الآخرة حزن من أي محزن.. في الدنيا وفي الآخرة

<sup>(</sup>٢) انظر: في ظلال القرآن ١/ ٣١٦.

<sup>(</sup>٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب الدعاء، رقم ١٤٧٩، ٢/ ٧٦، والترمذي في سننه، أبواب من قال في القرآن برأيه، باب ومن سورة المؤمن، رقم ٣٢٤٧، ٥/ ٢١١، وابن ماجه في سننه، كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، رقم ٣٨٢٨، ٢/ ١٢٥٨.

قال الترمذي: حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم

<sup>(</sup>۱) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٠٧، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢١٣/٣، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٢٣٤، البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٥٦٩.

وقد راعى نبي الله زكريا عليه السلام أدب الدعاء، وهو إخفاؤه ؛ لكونه أبعد عن الرياء، وأدخل في الإخلاص حين وصف الله فعله: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ. نِدَآةً خَفِيًّا ﴾ الله معله: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ. نِدَآةً خَفِيًّا ﴾ [مريم: ٣](١).

وتدل هذه الآيات على وجوه أهمها: الأول: أن هذه الآية تدل على أنه تعالى أمر بالدعاء مقروناً بالإخفاء، وظاهر الأمر للوجوب، فإن لم يحصل الوجوب، فلا أقل من كونه ندبًا.

الثاني: أنه تعالى أثنى على زكريا عليه السلام فقال: ﴿إِذْ نَادَى رَبُّهُ نِدَاَّةً خَفِيًّا ﴾ [مريم: ٣].

أي: أخفاه عن العباد وأخلصه لله وانقطع به إليه، فالآية تشير إلى أن الدعاء خفية مندوب، وأن ذلك إسرارٌ محمودٌ.

الثالث: ما رواه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه، أنهم كانوا في غزاة فأشرفوا على واد فجعلوا يكبرون ويهللون رافعي أصواتهم ، فقال صلى الله عليه وسلم: (ارفقوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً قريباً وإنه لمعكم)(۲)(۳).

ويطلق التضرع على الجهر بالدعاء؛ لأن الجهر من هيئة التضرع؛ لأنه تذلل جهري، كما في قوله تعالى: ﴿آدَعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا رَخُفْيةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ وَلَا نُفْسِدُوا فِ ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصَلَاحِهَا وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبً وَلَا غُنُ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبً وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبً وَالْعُراف: ٥٥، ٥٥]؛ لأنه أنسب بمقابلته بالخفية، فيكون أسلوبه وفقاً لأسلوب نظيره في قوله: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا

والتضرع لفظة تقتضي الجهر؛ لأن التضرع إنما يكون بإشارات جوارح وهيئات أعضاء تقترن بالطلب.

وَطَمَعًا ﴾ [الأعراف: ٥٦].

والخفية: الدعاء في السر، وهو مأمورٌ به مقصودٌ بذاته، أي : ادعوه مخفين دعاءكم، حتى أوهم كلام بعضهم أن الإعلان بالدعاء منهي عنه أو غير مثوب عليه، وخفية يريد في النفس خاصة.

والشريعة مقررة أن السر فيما لم يعترض من أعمال البر أعظم أجراً من الجهر، بل يندب الإسرار في جميع نوافل القربات من: الصلاة، والصوم، وقيام الليل، والعمل الصالح.

وتأول بعض العلماء التضرع والخفية في الآية في معنى السر جميعاً، فكأن التضرع فعل للقلب، ذكر هذا المعنى الحسن بن أبي الحسن البصري، وقال: لقد أدركنا أقواماً

V+37,1/137.

<sup>(</sup>١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٨٤.

<sup>(</sup>٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم ٢٠٥، ٥/ ١٣٣.

<sup>(</sup>٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٧٢.

ما كان على الأرض عمل يقدرون أن يكون سرًا فيكون جهراً أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء فلا يسمع لهم صوت، إن هو إلا الهمس بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول : ﴿ الله عَمَالَ مَنْ مَنْ مُنْكُمُ مَنْكُمُ مِنْكُمُ مَنْكُمُ مَنْكُمُ مَنْكُمُ مِنْكُمُ مَنْكُمُ مِنْكُمُ مَنْكُمُ مُنْكُمُ مِنْكُمُ مِنْكُمُ مِنْكُمُ مِنْكُمُ مُنْكُمُ مُنْكُمُ مُنْكُمُ مِنْكُمُ مِنْكُمُ مِنْكُمُ مِنْكُمُ مِنْكُمُ مُنْكُمُ مُ

ولكن الصحيح جواز الدعاء جهراً؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم دعا علناً غير مرة، وعلى المنبر بمسمع من الناس، وما رويت أدعيته إلا لأنه جهر بها يسمعها من رواها، فالصواب أن قوله: تضرعاً إذن بالدعاء بالجهر والإخفاء، وأما ما ورد من النهي عن الجهر فإنما هو عن الجهر الشديد الخارج عن حد الخشوع (٢).

## رابعًا: إسرار الغضب:

جعل الله سبحانه وتعالى إسرار الغضب وكتمانه مع القدرة على إنفاذه من صفات المتقين ، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَادِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّيِحُمْ وَجَنَّةٍ عَمْنُهُمَا

- (۱) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤٩/١٠، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤١٠.
- المحرر الوجير، ابن عطيه ٢٠/١٠. (٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤٩/١، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٣١، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٢٥٩، الوجيز، الواحدي ص ٣٥٨، تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ١١٨، التحرير المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ١٧١.

السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿ اللَّيْنَ اللَّهِ اللَّيْنَ السَّمَوَاتُ وَالْحَظِينَ اللَّهُ اللَّيْنَ وَالضَّرَّآءِ وَالْحَظِينَ الْفَاسِ وَاللَّهُ يُمِبُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا عَضِبُوا مُمَّ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى: ٣٧].

والكاظمين الغيظ هم: الجارعون الغيظ عند امتلاء نفوسهم منه، ولم يظهروه بقول أو فعل، فحفظوا نفوسهم من أن تمضي ما هي قادرة على إمضائه، باستمكانها ممن غاظها، وانتصارها ممن ظلمها.

وقد وصف الله تعالى أنبياءه بذلك فقال عن يعقوب عليه السلام: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَكَأْسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَيْصَنَّتْ عَيْسَنَاهُ مِنَ الْحُرْنِ فَهُو كَظِيمٌ ﴾ [يوسف: ٤٨]؛ لأنه لم يشك إلى أحد، وإنما كان يكمد في نفسه، ويمسك همه في صدره، وكان يكظمه أي يرده إلى قلبه ولا يرسله بالشكوى والغضب. وقوله تعالى في نبي الله يوسف عليه السلام: ﴿ قَالُوا إِن يَسْرِقُ فَقَدْ سَرَقَ السلام: ﴿ قَالُوا إِن يَسْرِقُ فَقَدْ سَرَقَ السَّرَقَ اللهُ يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمَّ السلام: ﴿ قَالُ أَنتُمْ شُرُّ مُحَانًا وَاللهُ وَاللهُ عَلَمُ مُعَانَا وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَاتَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ٧٧].

فقد أسر في نفسه قذفهم له وتحمل القذف ولم يظهر غضباً منها، أسر هذه الفعلة وحفظها في نفسه، ولم يبد تأثره منها، وهو يعلم براءته وبراءة أخيه ، وأعرض

عن زجرهم وعقابهم مع أنها طعن فيه وكذب عليه (١).

كما أن من يسر الغضب ويكتمه ويتحكم بانفعالاته فهو الشديد الشدة المحمودة؛ لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول صلى الله عليه وسلم قال: (ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)(٢).

وروى سهل بن معاذ، عن أبي رضي الله عنهم أن رسول صلى الله عليه وسلم قال: (من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله عز وجل على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره الله من الحور العين ما شاء)(٣).

- (۱) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٢٥، التفسير الوسيط، الواحدي ٢٢٤/٢، تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٥٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٣٤.
- (۲) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، رقم ٢١١٤، ٢٠٨٨ ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب وبأي شيء يذهب الغضب، رقم ٢٠١٤/٤/٢٠٩.
- (٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب من كظم غيظاً، رقم ٢٤٨/٤، ٢٤٨/٤، ٢٤٨/٤ والترمذي في سننه، أبواب البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب في كظم الغيظ، رقم ٢٠٢١، ٤/٢٧٢، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب الحلم، رقم ١٤٠٠/٢، ٤١٨٦

وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم

## أنواع الإسرار المذموم

الإسرار المذموم أنواع نتناولها بالبيان في ما يأتي:

# أولًا: إسرار الكفر:

إن من أخلاق المنافقين إسرار الكفر وإعلان الإيمان، وذلك أنهم إذا استقبلوا المؤمنين دفعوا عن أنفسهم بقولهم: آمنا استهزاء، وإبداء لخبثهم ومكرهم، وكشفاً عن إفراطهم في ادعاء أنهم مثل المؤمنين في الإيمان الحقيقي (٤).

وقد ذكر الله تعالى أن ذلك خلق راسخ ومتجذر فيهم في آيات كثيرة ، منها: قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ اللّهِ وَمَا أَمُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٨].

وقوله عز من قائل: ﴿ وَإِذَا لَـعُواْ الَّذِينَ عَامَنُواْ قَالُواْ عَامَنًا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا خَنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤].

وقوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا لَقُوا اللَّذِينَ ءَامَنُوا اللَّذِينَ ءَامَنُوا اللَّذِينَ ءَامَنُوا اللَّهَا ءَامَنًا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضِ قَالُوٓا اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُعَاجُوكُم بِدِء عَنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا نَعْقِلُونَ ﴿ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُعَاجُوكُم بِدِء عِندَ رَبِكُمْ أَفَلَا نَعْقِلُونَ ﴿ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ عَلَيْكُونَ اللَّهُ عَلَيْكُونَ اللَّهُ عَلَيْكُونَ اللَّهُ عَلَيْكُونَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيعَلَّمُونَ اللَّهُ عَلَيْكُونَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيعَلَيْكُونَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيعَلَّمُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ اللَّهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ اللَّهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ اللَّهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ اللَّهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ اللَّهُ عَلَيْكُونَ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ اللَّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ ال

#### 1105,7/7111.

<sup>(</sup>٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/٣٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢٠٢/١، أنوار التنزيل البيضاوي ١٩٩٨، فتح القدير، الشوكاني ١/ ١٢٠، روح المعاني، الألوسي ١٩٨٨.

أَلَّهُ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [البقرة: ٧٢-٧٧].

وقوله جل شأنه: ﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُواْ مَامَنَا وَقَد دَّخَلُواْ بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِيرَّ وَاللَّهُ أَعَامُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴾ [المائدة: ٢١].

وقد أجمع أهل التفسير على أن هذه الآيات نزلت في قوم من أهل النفاق بصفة عامة، وذهب جمهور المفسرين إلى أن الآية نزلت في يهود نافقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالآية في عامة المنافقين الذين يظهرون كلمة الإيمان ويسرون الكفر، فنفى الله سبحانه وتعالى عنهم الإيمان، وبيَّن أن هذه الصفة صفتهم (۱).

فالمنافقون يصانعون المؤمنين في الظاهر، وقلوبهم منطوية على الكفر، ولا نجعت فيهم المواعظ ولا الزواجر، مع أن الله تعالى عليم بما يسرون، وإن أظهروا لخلقه خلاف ذلك، وتزينوا بما ليس فيهم، فإن الله أعلم بهم منهم، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء، ثم بين الله تعالى أنه سيظهر ذلك يوم القيامة في قوله عز وجل: ﴿ لَلْ بَدَا

# لَمْتُم مَّا كَانُوا يُحْفُونَ مِن قَبَلُّ وَلَوْ رُدُّوا لَمَا دُوا لِمَا نَهُوا عَنْـهُ وَإِنَّهُمْ لَكَيْدِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٨].

أي: أن الله تعالى يوم القيامة يكشف أسرار المنافقين الذين كانوا يسرون الكفر ويظهرون الإسلام، وأخبر أنهم لو ردوا إلى الحياة الدنيا لعادوا لما نهوا عنه؛ لأن المنافق يخالف قوله فعله، وسره علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده مغيبه (٢).

## ثانيًا: إسرار العداوة والبغضاء:

إن إسرار العداوة والبغضاء لأهل الإيمان من أعمال المنافقين، وبالرغم من إسرار المنافقين، وبالرغم من إسرار المنافقين العداوة والبغضاء وكتمانها في قلوبهم عن المسلمين، إلا أنها تبدو من أفواه المنافقين إلى إخوانهم من الكفار، وتظهر عداوتهم بالشتيمة والوقيعة في المسلمين وإطلاع المشركين على أسرارهم، وما تخفي صدورهم من العداوة والخيانة أكبر: أعظم مما أظهروا، فقد قال تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهُا لَا تَنْخِفُ مَا لَا فَكُمْ لَا الْمُنْكُمْ خَبَالْا وَدُوا مَاعَنِيمُ قَدْ بَدَتِ الْبَغَضَالَةُ مِنْ الْمُكُمْ لَا الْمُنْكُمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ فَدَ بَلَيْنَا لَكُمُ الْمُنْ وَلَا يُحْبُونَكُمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ فَدَ بَلِينَا لَكُمُ اللَّا يَعْنَى اللَّهُ اللهِ وَالْمَانَةُ اللهُ اللهِ وَلَا اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ وَلَا اللهُ وَلَا اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ وَلَا اللهُ ال

<sup>(</sup>۱) انظر: جامع البيان، الطبري ۲/ ٤٤٤، تفسير القرآن، السمعاني ۲/ ٥٠، التفسير الوسيط، الواحدي ۲/ ٢٠٥، مفاتيح الغيب، الرازي ٢/ ٢/ ٣٩٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢٣٢، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٣٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٣٢.

<sup>(</sup>۲) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ۲۹/۱ تفسير القرآن، السمعاني ۲/ ۵۰، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ۸/ ۹۷، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ۱/ ۸۷، المنار، محمد رشيد رضا ۲/ ۶۰۸.

قَالُواْ ءَامَنَا وَإِذَا خَلَوا عَضُوا عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيَالُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيَظِ مُلَمَّ إِذَ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الْمُسْدُودِ ﴾ [آل عمران: ١١٨ - ١١٩].

وبسبب ما يسرون من البغضاء للمؤمنين نهى الله تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ خواص ومقربين ودخلاء من غير أهل ملتهم بطانة؛ لأنهم: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾ والخبال: الفساد والشر، أي: لا يقصرون ولا يتركون جهداً في مضرتكم وفسادكم (١).

والمنافقون لا يقصرون بجهدهم وطاقتهم بإطلاع الكافرين على سرائر المؤمنين، وما يضمرونه لهم، وما يسعون به في مخالفتهم، وما يضرهم بكل ممكن، وبما يستطيعون من المكر والخديعة، ويودون ما يعنت المؤمنين ويحرجهم ويشق عليهم (٢). أما المؤمنون فلا يكفي إسرار العداوة والبغضاء للكافرين والمنافقين، بل يجب إبداء تلك العداوة والبغضاء وإعلانها وإظهارها لهم أبداً حتى يؤمنوا بالله وحده، ما لم تكن هناك مصلحة شرعية في عدم إظهارها، فإذا آمنوا صارت تلك العداوة

موالاة، والبغضاء محبة، عملاً وتأسياً حيث أظهروا البراءة من قومهم بسبب شركهم وكفرهم بالله تعالى، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَنَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسُوةً حَسَنَةً فِي إِنْرَهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذَ قَالُوا لِمَوْمِهِم إِنَّا بُرَءَ وَأَ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُرْ وَبَدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْمَدَوةُ وَالْبَعْضَاةُ أَبَدًا حَتَى تُوْمِنُوا بِاللهِ وَحَدَهُ وَإِنَّا لَهُ وَلَيْ اللهِ مِن اللهِ مِنْ وَلِيْ اللهِ مِنْ وَلِيْنَا وَالْمِنْ وَلِيْنَا وَالْمِنْ اللهِ مِنْ اللهِ مِنْ اللهِ مِن اللهِ مِن اللهِ مِنْ اللهِ مِنْ اللهِ مِنْ اللهِ مِنْ اللهِ مِنْ اللهِ مِنْ مِنْ اللهِ مِنْ اللهِ مِنْ اللهِ مِنْ مِنْ اللهِ مِنْ اللهِ مِنْ اللهِ مِنْ اللهِ مِنْ اللهِ مِنْ اللهِ مِنْ مِنْ اللهِ مُنْ اللهِ مِنْ مِنْ اللهِ مِنْ مِنْ اللهِ مِنْ مِنْ اللهِ مِنْ مِنْ مِنْ اللهِ مِنْ مِنْ اللهِ مِنْ مِنْ اللهِ مِنْ مِنْ اللهِ مُنْ اللهِ مِنْ اللهِ مِنْ اللهِ مِنْ اللهِ مُنْ اللهِ مِنْ مِنْ اللهِ مِنْ اللهِ مِنْ اللهِ مِنْ مِنْ اللهِ مِنْ اللهِ مِنْ مِنْ اللهِ مِنْ اللهِ مِنْ اللهِ مِنْ اللهِ مُنْ اللهِ مِنْ مِنْ اللهِ مِنْ اللهِ مِنْ اللهِ مِنْ اللهِ مِنْ مِنْ مِنْ مِنْ اللهِ مِنْ اللهِ مِنْ اللهِ مِنْ اللهِ مِنْ اللهِ مِنْ اللهِ مِنْ

## ثالثًا: إسرار المكر والكيد:

المكر في اللغة هو: التدبير على العدو في احتيال وخفية، واصطلاحًا هو: إخفاء الكيد وطيه، والكيد: المكر والخبث، وظاهر كلام أهل اللغة أن الكيد والمكر مترادفان، وقد فرق بينهما بعض فقهاء اللغة، بأن الكيد: المضرة، والمكر: إخفاء الكيد وإيصال المضرة، وقيل: الكيد هو: الأخذ على خفاء من غير إظهار الماكر خلاف ما يبطن، والمكر: الأخذ على خفاء مع إظهار الماكر خلاف ما إلماكر خلاف ما يبطن، والمكر: الأخذ على خفاء مع إظهار الماكر خلاف ما يبطن،

 <sup>(</sup>۱) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ۱۶۵/۲۸ أضواء البيان، الشنقيطي ۸/۸۰، التفسير المنير، الزحيلي ۱۲۸/۲۸.

<sup>(</sup>۲) انظر: جامع البيان، الطبري // ١٤٥، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢١١١، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٤٨٣، تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٣٥١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/٤٢.

<sup>(</sup>٣) انظر: الوجيز، الواحدي ص ٢٢٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٤٤، أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٨٥، التفسير المنير، الزحيلي ٢٨/ ١٢٨.

<sup>(</sup>٤) انظر: الله وق اللغوية، العسكري ص ٢٥٩، لسان العرب، ابن منظور ١٨٣/٥، تاج العروس، الزبيدي٩ / ١٢٢.

إن إسرار المكر والكيد لله ولرسله وللمؤمنين في كل وقت وحين هو من أخلاق الكافرين والمنافقين، ولا يكون المكر والكيد إلا في سرِّ وخفيةٍ، وهو على أنواع:

الأول: المكر والكيد بآيات الله بالطعن فيها وتكذيبها والاحتيال في دفعها ، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقَنَا النَّاسَ رَحَمَةً مِّنْ بَعْدِ مَرَّاةً مَسَّتُهُمَّ إِذَا لَهُم مَّكُرُّ فِي اَلِيَانِنَا قُلِ اللَّهُ أَسَرَعُ مَكَرًّ إِنَّ رَسُلَنَا يَكُنُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ [يونس: مَكُرًّ إِنَّ رُسُلَنَا يَكُنُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ [يونس: مَكُرًّ إِنَّ رُسُلَنَا يَكُنُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾

وقد بيَّن الله تعالى أنه أسرع مكراً منهم، فقد دبّر عقابهم قبل أن يدبروا كيدهم، والمكر من الله تعالى: صفة مقابلة لا تطلق عليه إلا في مقابل مكر وكيد الكافرين والمنافقين.

ولما كان المكر والكيد يكون في سرِّ وخفية، فقد بين الله تعالى إن الحفظة يكتبون ما يمكر به المنافقون والكافرون؛ تحقيقاً للانتقام منهم، وتنبيها على أن ما دبروا في إخفائه لم يخف على الحفظة فضلاً أن يخفى على الله تعالى (١).

ثانيًا: المكر والكيد برسل الله تعالى والمؤمنين:

دلت الكثير من الآيات على مكر وكيد

(۱) انظر: الكشاف، الزمخشري ۲/ ۳۳۷، مفاتيح الغيب، الرازي ۱۱/ ۲۰، أنوار التنزيل، البيضاوي ۲/ ۱۰۹.

الكافرين والمنافقين برسل الله تعالى والمؤمنين، منها: قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكْرَ اللَّهِ مَنَالَهُ مَا تَكْسِبُ اللَّهِ مَنْ مَنْ مَنْ اللَّهِ الْمَكْرُ بَهِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ الرعد: ٤٢].

وقوله عز وجل: ﴿وَمَكَرُواْمَكُواْمَكُواْمَكُواْمَكُواْمَكُواْمَكُواْمَكُواْمَكُواْمَكُواْمَكُواْمَكُواْمَكُوا

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا أَذَمْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنَ بَعْدِ وقوله سبحانه: ﴿ فَوَقَـنُهُ ٱللَّهُ سَيِّعَاتِمَا ضَرَّآةً مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكُرُّ فِي ٓ اَيَالِنَا قُلِ ٱللَّهُ ٱلْسَكُ مَكُرُّ أَلَّ وَحَاقَ بِعَالِ فِرْعَوْنَ سُوَّهُ ٱلْعَذَابِ ﴾ مَكُرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكُنُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ [يونس: [غافر: ٤٥].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا مَكَرُا وَمَكَرُوا مَكَرُا وَمَكَرُوا مَكَرُا وَمَكُرُوا مَكَرُوا مَكَرُوا مَكَرُوا مَكَرُوا مَكَرُوا مَكَرُوا مَكَرُوا مَكُرُوا مَكُرُوا مَكُرُوا مَكُرُوا مَكُرُوا مَكُرُوا مَكُوا مَكُوا مَكُوا مَكُوا مَكُوا مَكُوا مَكُوا مَكُوا مِنْ كَاللّهُ مُوا مُؤْمِنُ كُيْدِ ٱلْكَنْفِرِينَ ﴾ [الأنفال: ١٨](٢).

وقد بيَّن الله عاقبة مكر وكيد الكافرين والمنافقين وأنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر وسيجزي كل عامل بعمله، وستكون العاقبة لأتباع الرسل في الدنيا والآخرة، كما مكر الذين من قبلهم برسلهم، وأرادوا إخراجهم من بلادهم، فمكر الله بهم، وجعل العاقبة للمتقين: ﴿ وَإِذْ يَشَكُرُ لِللَّهُ مِنْ اللَّهُ اللَّهُ مُؤُولًا لِيُشِبُّوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُعْرِجُوكُ وَيَعْمُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَنْ اللَّهُ مَنْ اللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ عَنْدُ اللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَنْدُ اللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ عَنْدُ الْمَنْ اللَّهُ وَاللَّهُ عَنْدُ الْمَنْ اللَّهُ وَاللَّهُ عَنْدُ اللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ عَنْدُ الْمَنْ اللَّهُ وَاللَّهُ عَنْدُ الْمَنْ اللَّهُ وَاللَّهُ عَنْدُ اللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ عَنْدُ اللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ عَنْدُ اللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ عَنْدُ اللّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ وَاللّهُ وَلّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ

وبيَّن الله تعالى أنه يدمر من يمكر،

<sup>(</sup>۲) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ۲/ ۲۱۲، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٠٦.

ومثله قوله تعالى: ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَلِمِهِ فَأَتَ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ مِنْ مِن أَلْقِهِم اللَّقَوَاعِدِ فَخَرَ عَلَيْهِمُ السَّقَفُ مِن فَوْقِهِم وَأَتَىٰ هُمُ الْسَقَفُ مِن فَوْقِهِم وَأَتَىٰ هُمُ الْمَدَاا مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ وأتنهم النحل: ٢٦](١).

كما أوصى الله المؤمنين بما يدفع المكر والكيد وهو :الصبر والتقوى ، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِن مِّسَسَّكُمْ صَلَنَةٌ شَوُّهُمْ وَإِن تُصَبِرُوا وَإِن تُصَبِرُوا وَإِن تُصَبِرُوا وَإِن تَصَبِرُوا وَيَن تُصَبِرُوا وَتَنَقُوا لَا يَعْبُرُكُمُ مَ كَيْدُهُمْ شَيْعًا إِنّ اللّهَ بِمَا وَتَنَقُوا لَا يَعْبُرُكُمُ مَ كَيْدُهُمْ شَيْعًا إِنّ اللّهَ بِمَا وَتَنْقُوا لَا يَعْبُرُكُمُ مَ كَيْدُهُمْ شَيْعًا إِنّ اللّه بِمَا وَتَنْقُوا لَا يَعْبُرُكُمُ مَ كَيْدُهُمْ شَيْعًا إِنّ اللّه بِمَا يَعْمَلُونَ مُعِيطًا ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

ثالثًا: المكر والكيد بين المسلمين بعضهم لبعض، وهذا محرم ولا يجوز، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ يَبُنَيَّ لَا نَقَصُصْ رُءً يَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوَّ مُبِينً ﴾ [يوسف: ٥].

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَبِيصَهُ وَ فَكَمَّا رَءَا قَبِيصَهُ وَ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عِظِيمٌ ﴾ [بوسف: ٢٨].

(۱) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ۱۹/ ۲۸۶، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٩٨.

وكذلك الغدر بالمسلمين، يدخل في المكر والكيد، وهو محرم لما رواه ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ينصب لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة، فيقال هذه غدرة فلان بن فلان)(٢٠).

والحكمة في هذا أنه لما كان الغدر خفيًا لا يطلع عليه الناس، فيكشف الغدر والغادر يوم القيامة علانية ويطلع عليه بصورة فيها شيء من الإهانة، ويصير علماً منشوراً على صاحبه بما فعل (٣).

## رابعًا: الإسرار بالمودة للكافرين:

بيَّن الله تعالى بأن من يسرّ من المسلمين الى المشركين بالمودة فقد جار عن قصد السبيل التي جعلها الله طريقاً إلى الجنة ومحجة إليها، قال تعالى: ﴿يَاتَيْمُ اللَّهِنَ اللَّهِنَ اللَّهِ اللَّهُ عَلَيْكُمْ اللَّهُ اللَّهِنَ اللَّهِنَ اللَّهِنَ اللَّهِنَ اللَّهِمَ وَمَدُولًا مَ اللَّهُ اللَّهِنَ اللَّهُ اللَّهِمَ بِالْمَودَةِ وَقَدْ كَفُرُوا بِمَا جَآءَكُمْ مِن الْحَقِ يَعْمُونُ اللَّهِم بِالْمَودَةِ وَقَدْ كَفُرُوا بِمَا جَآءَكُمْ مِن الْحَقِ يَعْمُونُ اللَّهِم بِالْمَودَةِ وَقَدْ كَفُرُوا بِمَا جَآءَكُمْ مِن الْحَقِ عَرَبِكُمْ إِن كُمْمُ اللَّهِم بِالْمَودَةِ وَأَنَا أَعَلَمُ بِمَا الْحَقْيَةُ مَرْضَاتً شَهْرُونَ إِلَيْعَلَمُ مَرْضَاتً شَهْرُونَ إِلَيْعِمْ وَمَا أَعْلَمُ مُ وَمَن اللَّهُ الْمُعْلَمُ الْمُعْلَمُ اللَّهُ ال

<sup>(</sup>۲) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما يدعى الناس بآبائهم، رقم ۲۱۷۷، ٨/ ٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر، رقم ۱۷۳۵، ٣/ ١٣٥٩.

<sup>(</sup>٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٩٩.

(ا)؛ لأن المودة هي عماد عقيدة الولاء والبراء للباري سبحانه، ومكانها القلب الذي هو موئل العاطفة، ومنبت الإحساس والمشاعر، وهي معنى خفي لا يطلع عليه إلا الخالق عالم الغيب والشهادة، ولذلك كان عطاء لله تعالى للعبد على قدر إخلاصه في هذه المحبة لله ولرسوله ولدينه ولعباده المؤمنين ، فلابد أن تجرد هذه المحبة لله وتصفى وتنقى من أي شائبة بشرك أو غبار رياء، أو تكدير نفاق (۱).

والإسرار في الآية على وجهين: أحدهما: تعلمونهم سراً أن بينكم وبينهم مودة.

الثاني: تعلمونهم سرًّا بأحوال النبي صلى الله عليه وسلم بسبب المودة التي بينكم وبينهم، وقد فسر بأن معناه: يظهرون، وهذا صحيح ؛ فإن الإسرار إلى الغير يقتضي إظهار ذلك لمن يفضى إليه بالسر، وإن كان يقتضي إخفاءه عن غيره، فإن قولهم: أسررت إلى فلان يقتضي من وجه الإظهار، ومن وجه الإخفاء (٢).

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية وما بعدها من أول هذه السورة نزلت في شأن حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه، وكان قد كتب إلى قريش بمكة يطلعهم على أمر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخفاه عنهم، وبذلك جاءت الآثار والرواية عن جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهم (٣).

فقد روى علي بن أبى طالب رضى الله عنه قال: (بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ- وهو مكان بين مكة والمدينة - فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها فأتونى به فخرجنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة فقلنا لها: أخرجي الكتاب. فقالت: ما معي . ويروى أنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، وكان كتب إلى أهل مكة يتنصح لهم، فكتب إليهم أن رسول الله يريد أن يغزوكم فخذوا حذركم فأطلع الله نبيه على ذلك، وكان كتب إليهم كتاباً ووجه به مع امرأة يقال إنها كانت مولاة بني هاشم، فوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم على والزبير خلفها فلحقاها فسألاها عن الكتاب فأنكرت، ففتشا ما معها فلم يجدا شيئاً، فقال علي رضوان الله عليه: إن رسول الله صلى

الزمخشري ٤/ ٥١٢. (٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٣١٠/ ٣١٠، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ١٥٥.

<sup>(</sup>۱) انظر: جامع البيان، الطبري ۳۱۰/۳۱، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/١٥٥، النكت والعيون، الماوردي ٥/٧١٥، الكشاف، الزمخشري ٤/٥١٢.

<sup>(</sup>۲) انظر: جامع البيان، الطبري ٣١٠/٢٣، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ١٥٥، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٠٤، النكت والعيون، الماوردي ٥/٧١، الكشاف،

الله عليه وسلم لم يكذبنا فأقسم علي عليها لتخرجن الكتاب أو ليضربنها بالسيف، فقالت لهما: وليا وجوهكما وأخرجت الكتاب من قرن من قرون شعرها، فجاء بالكتاب إلى النبي عليه السلام فعرضه على حاطب فاعترف به، وقال: إن لي بمكة أهلاً ومالاً فأردت أن أتقرب منهم، ولن يرد الله بأسه عنهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَاأَيُّهَا اللَّذِينَ اللَّهِ عَنْهُمُ أَوْلِياً اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ عَنْهُمُ أَوْلِياً اللَّهِ اللَّهِ عَنْهُمُ أَوْلِياً اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهُ اللّهُ الل

لكن الآية عامة في كل من يسر مودة الكافرين؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب(٢).

خامسًا: الإسرار بمواعدة النساء بالزواج:

حرم الله تعالى النكاح في العدة، وأوجب التربص على الزوجة مدتها، وقد علم سبحانه أن الخلق لا يستطيعون الصبر عن ذكر النكاح والتكلم فيه، فأذن في التصريح بذلك مع جميع الخلق، وأذن

(۱) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح، رقم ٤٧٧٤، ٥/ ٥ ا، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم وقصة حاطب بن أبي بلتعة، رقم ٤٤٤٤/٤/٤/٤.

(٢) انظَّر: البحر المحيط في أصول الفقه، بدر الدين الزركشي ٢٦٩/، شرح الكوكب المنير، ابن النجار الحنبلي ٣/ ١٧٧.

في ذكر ذلك بالتعريض مع العاقد له، وهو المرأة أو الولي؛ وهو في المرأة آكد.

والتعريض هو: القول المفهم لمقصود الشيء، وليس بنص فيه، أي: الإشارة بالكلام إلى ما ليس فيه ذكر النكاح، والتعريض المباح في العدة بخطبة معتدة الوفاة في أثناء العدة: أن يقول لها الرجل مثلاً: إنك لجميلة، ومن يجد مثلك، ورب راغب فيك، ولعل الله أن يسوق إليك خيراً، أو يقول: رب رجل يرغب فيك، وما جرى مجرى هذه الألفاظ. والتصريح هو: التنصيص عليه والإفصاح بذكره. والتعريض مأخوذ من عرض الشيء وهو ناحيته، كأنه يحوم على

<sup>(</sup>٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ١٥٨.

النكاح، ويمشى حوله ولا ينزل به(١).

وقد اختلف العلماء في السر المراد في هذه الآية على ثلاثة أقوال:

الأول: أنه الزنا، قاله: جابر بن زيد، وأبو مجلز: لاحق بن حميد، والحسن بن أبي الحسن، والضحاك، وإبراهيم النخعي، وهو اختيار الإمام الطبري(٢).

الثاني: الجماع، وهو قول الشافعي، ويكنى به عن الجماع حلاله وحرامه؛ لكونه يكون في سر، وقد يعبر به عن العقد؛ لأنه سبب فيه (٣).

الثالث: التصريح بالنكاح: ذهب إلى ذلك جمهور العلماء، أي: لا تتعدوا معهن وعداً صريحاً على التزوج بهن (٤).

والمراد بالسر في الأصل: هو الوطء، ويقصد به هنا عقد الزواج في العدة سرًّا،

فأطلق على العقد الذي هو سبب الوطء، وقيل: المراد به هنا هو الزنى، وهو اختيار الإمام الطبري، أو هو التعريض بالقول لها: إني عاشق وعاهديني أن لا تتزوجي غيري، قال الإمام ابن كثير: وقد يحتمل أن تكون الآية عامة في جميع ذلك(٥).

قال سيد قطب في ظلال هذه الآية: «والعلة في النهي عن المواعدة؛ لأن المواعدة على هذه الحال مدرجة للفتنة، ومظنة للقيل والقال، بخلاف التعريض فإنه يكون على ملأ من الناس، فلا عار فيه ولا عيب، ولا يكون وسيلة إلى ما لا تحمد عقباه؛ لأن المرأة في عدتها ما تزال معلقة بذكرى لم تمت، وبمشاعر أسرة الميت، ومرتبطة كذلك بما قد يكون في رحمها من حمل لم يتبين، أو حمل تبين، والعدة معلقة بوضعه.. وكل هذه الاعتبارات تمنع الحديث عن حياة زوجية جديدة؛ لأن هذا الحديث لم يحن موعده؛ ولأنه يجرح الحديث لم يحن موعده؛ ولأنه يجرح مشاعر، ويخدش ذكريات.

ومع رعاية هذه الاعتبارات فقد أبيح التعريض -لا التصريح- بخطبة النساء. أبيحت الإشارة البعيدة التي تلمح منها المرأة أن هذا الرجل يريدها زوجة بعد انقضاء عدتها (٢٠).

<sup>(</sup>۱) انظر: غريب القرآن، ابن قتيبة ص٩٠، معاني القرآن، النحاس ٢٢٨/١، أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٢٨٥.

<sup>(</sup>۲) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ١٠٥، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٣٠٤، أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٢٨٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٥/١٠.

<sup>(</sup>٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٨٣، أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٢٨٧، البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٢٢، تفسير المراغي ١٩٤/٢.

<sup>(</sup>٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ١٠٥، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٢٠٤، أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٢٨٨، المحرر الوجيز، ابن عطبة ١/ ٣١٥.

<sup>(</sup>٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٨٣.

<sup>(</sup>٦) انظر: في ظلال القرآن ١/٥٥٥.

## السريوم القيامة

تنكشف أسرار الناس يوم القيامة فلا يخفى منه على الله شيء، وهذا ما سنبينه في النقاط الآتية:

# أولًا: انكشاف السرائر:

في يوم القيامة تنكشف السرائر، ويعرض الناس على عالم السر والنجوى، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، بل هو عالم بالظواهر والسرائر والضمائر، وفي ذلك اليوم يعرض العباد على الله لحسابهم، فلا يخفى على الله تعالى من أعيانهم وأعمالهم وأحوالهم وأمورهم شيء، فهو يعلم السر وأخفى، ويدل على هذا المعنى آيات كثيرة ، منها قوله تعالى: هذا المعنى آيات كثيرة ، منها قوله تعالى:

وقوله عز وجل: ﴿يَوْمَ هُم بَدِرُونَ لَا يَخْنَى عَلَى اللّهِ مِنْهُمْ شَىَّءٌ لِمَنِ ٱلْمُلّكُ ٱلْيَوْمُ لِلّهِ ٱلْوَحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وقوله جل شأنه: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۚ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَلَهِ ﴾ [إبراهيم: ٣٨].

وكذلك قوله سبحانه: ﴿ يَعْلَمُ خَآمِنَةُ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩](١).

وفي هذا المقام قال سيد قطب في ظلال قوله تعالى: ﴿يَوْمَيْدِ نَعُرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُرْ خَافِيَةً ﴾ [الحاقة: ١٨] فالكل مكشوف. مكشوف الجسد، مكشوف النفس، مكشوف الضمير، مكشوف العمل، مكشوف المصير. وتسقط جميع الأستار التي كانت تحجب الأسرار، وتتعرى النفوس تعري الأجساد، وتبرز الغيوب بروز الشهود.. ويتجرد الإنسان من حيطته ومن مكره ومن تدبيره ومن شعوره، ويفتضح منه ما كان حريصاً على أن يستره حتى عن نفسه! وما أقسى الفضيحة على الملأ. وما أخزاها على عيون الجموع! أما عين الله فكل خافية مكشوفة لها في كل آن، ولكن لعل الإنسان لا يشعر بهذا حق الشعور، وهو مخدوع بستور الأرض. فها هو ذا يشعر به كاملاً وهو مجرد في يوم القيامة. وكل شيء بارز في الكون كله. الأرض مدكوكة مسوّاة لا تحجب شيئاً وراء نتوء ولا بروز، والسماء متشققة واهية لا تحجب وراءها شيئاً، والأجسام معرّاة لا يسترها شيء، والنفوس كذلك مكشوفة ليس من دونها ستر وليس فيها سرا ألا إنه لأمر عصيب، أعصب من دك الأرض والجبال، وأشد من تشقق السماء! وقوف الإنسان عريان الجسد، عريان النفس، عريان المشاعر، عريان

<sup>(</sup>۱) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٥٨٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٢٩، التفسير

المنير، الزحيلي ٢٩/ ٨٩.

التاريخ، عريان العمل ما ظهر منه وما استتر، أمام تلك الحشود الهائلة من خلق الله، من الإنس والجن والملائكة، وتحت جلال الله وعرشه المرفوع فوق الجميع..

وإن طبيعة الإنسان لمعقدة شديدة التعقيد ففي نفسه منحنيات شتى ودروب، تتخفى فيها نفسه وتتدسس بمشاعرها ونزواتها وهفواتها وخواطرها وأسرارها وخصوصياتها، وإن الإنسان ليصنع أشد مما تصنعه القوقعة الرخوة الهلامية حين تتعرض لوخزة إبرة، فتنطوي سريعاً، وتنكمش داخل القوقعة، وتغلق على نفسها تمامًا.

إن الإنسان ليصنع أشد من هذا حين يحس أن عيناً تدسست عليه فكشفت منه شيئاً مما يخفيه، وأن لمحة أصابت منه درباً خفيا أو منحنى سريًا! ويشعر بقدر عنيف من الألم الواخز حين يطلع عليه أحد في خلوة من خلواته الشعورية..

فكيف بهذا المخلوق وهو عريان. عريان حقًا. عريان الجسد والقلب والشعور والنية والضمير. عريان من كل ساتر. عريان... كيف به وهو كذلك تحت عرش الجبار، وأمام الحشد الزاخر بلا ستار؟! ألا إنه لأمر، أمر من كل أمر!!! وبعدئذ يعرض مشهد الناجين والمعذبين، كأنه حاضر تراه العيون(١).

## ثانيًا: إسرار الندامة:

أخبر الله تعالى أن الكافرين يسرون الندامة يوم القيامة، والندامة: الحسرة لوقوع شيء أو فوت شيء، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلُو أَنَّ لِكُلِ نَفْسِ ظَلَمَتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَافْتَدَتَ بِيمُّ وَأَسَرُّوا ٱلنَّدَامَة لَمَّا رَأَوا ٱلْعَذَابُ وَقُضِوك بِيمّ وَأَسَرُّوا ٱلنَّدَامَة لَمَّا رَأَوا ٱلْعَذَابُ وَقُضِوك بِيمْ وَاللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ وَا اللَّهُ وَاللَّهُ وَالَا اللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَال

- (۲) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ۲/ ۵۰، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ۸/ ۹۷، المنار، محمد رشيد رضا ۲/ ٤٠٨، التفسير المنير، الزحيلي ۱/ ۹۳.
- (٣) انظر: معاني القرآن، النحاس ٣/ ٣٠٠، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤٣٨، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ٢٠٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٢٠٩.

<sup>(</sup>١) انظر: في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٨٠.

وإسرار الندامة يوم القيامة على معنيين:
الأول: الإخفاء والكتمان، أي: أخفى الرؤساء في الكفر الندامة من الذين أضلوهم، وستروها عنهم، وهذا قول عامة المفسرين، وهو المشهور في اللغة والشائع في الاستعمال؛ لأن السر من الأضداد - كما سبق - ولا موجب للعدول عن المشهور والشائع في الاستعمال إلا بدليل؛ ولأن والسر) يستعمل غالباً في الكتمان، وذلك ما ينصرف إليه الذهن بادىء الرأي، وهو أنسب بالمقام.

الثاني: الإظهار والإعلان، أي: أظهروا الندامة وأعلنوها على ما فاتهم من الكفر والعصيان، ويدل على هذا المعنى أن الآخرة ليست دار تجلد وتصبر؛ كي يظهروا خلاف ما يبطنون ، وقد ذهب إلى هذا المعنى جماعة من المفسرين؛ لأن الإسرار من الأضداد، يقال: أسررت الشيء، أخفيته، وأسررته، أعلنته، فيكون المعنى في قوله تعالى: ﴿وَأَمَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأُوا الْعَدَابِ ﴾ تعالى: ﴿وَأَمَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأُوا الْعَدَابِ ﴾ [يونس: ٥٤] أي: أظهروها(١١).

ومما يؤيد هذا المعنى أن الندامة تظهر يوم القيامة جهراً في مواضع أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَشُّ ٱلظَّـٰ الْمُ عَلَى يَدَيْهِ

يَعُولُ يَنَيْتَنِي اَقَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۞ يَنَوَيْلَقَ لَيْتَنِي لَرُ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۞ لَقَدْ أَضَلَنِي عَنِ الذِّحَرِ بَعَدَ إِذْ جَآءَ نِّ وَكَانَ الشَّيْطُنُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

وقد حكى جماعة من المفسرين عن المبرد وجهاً ثالثاً في معنى إسرار الندامة: أنه بدت بالندامة أسرة وجوههم، وهي تكاسير الجبهة، واحدها سرار (٢).

ومن خلال النظر في أقوال المفسرين يمكن القول بأن الإسرار يوم القيامة يحتمل المعاني الثلاثة: ففي مواطن يكتمون الندامة، وفي أخرى يظهروها، مع بدو الندامة في أسرة وجوههم في جميع الأحوال.

<sup>(</sup>۱) انظر: جامع البيان، الطبري ۲۹۱/۱۸، معاني القرآن، النحاس ۳/ ۲۹۹، التفسير الوسيط، الواحدي ۲/ ۵۰۰، تفسير القرآن، السمعاني ۲/ ۳۸۹

<sup>(</sup>۲) انظر: معاني القرآن، النحاس ۳۰۰،۳۰ النكت والعيون، الماوردي ۲/ ٤٣٨، مفاتيح الغيب، الرازي ۲۰۸/ ۲۰، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ۲۱/ ۲۱، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ۸/ ۳۵۲، التحرير والتنوير، ابن عاشور ۲۲/ ۲۰۹.

## المحاسبة على السر

لما كان الله تعالى له ملك السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن، وكان المطلع على ما فيهن، بحيث لا تخفى عليه الظواهر، ولا السرائر والضمائر، وإن دقت وخفيت، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلُ إِن تُخَفُّوا مَا فِي مُسُدُورِكُمْ أَوْتُبُدُوهُ يَسْكَنهُ اللهُ وَيَسْكُمُ مَا فِي الْمُرْتِقِقُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَحْتِ وَمَا فِي الْمُرْتِقِ وَاللهُ عَلَى كُلِ شَحْتِ وَمَا فِي الْمُرْتِقِ وَاللهُ عَلَى حُلْلٍ شَحْتِ وَمَا فِي الْمُرْتِقِ وَاللهُ عَلَى حَلْلِ شَحْتِ وَمَا فِي اللهُ عَلَى عَلَى اللهُ اللهِ عَلَى اللهُ عَلَى اللّهُ عَ

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَ وَأَخْفَى ﴾ [طه: ٧].

وقوله سبحانه: ﴿ يَوْمَ هُم بَدْرُونَ لَا يَغْفَى عَلَى اللّهِ مِنْهُمْ شَىٰ أَمُّ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيُومُ لِلّهِ الْوَسِدِ الْقَهَارِ ﴾ [غافر: ١٦].

والآيات في ذلك كثيرة جدًّا.

أخبر الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة بأنه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَ أَبُكُنَ السَّرَآيِرُ ﴾ [الطارق: ٩].

وفي الآية إشارة إلى أن ابتلاء السرائر يوم القيامة يتحقق بظهورها بعد الخفاء والاستتار ليتم تمحيصها واختبارها.

وهذا المعنى يتضح في قوله تعالى: ﴿ يَقِهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي اَلْأَرْضُ وَإِن تُبَدُّوا مَا فِي أَنْشُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبَكُم بِدِ اللَّهُ أَ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَكَهُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَكَهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ

# كُلِّ مَنْ وَقَدِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٤](١).

ولما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على الصحابة رضي الله عنهم وخافوا منها، ومن محاسبة الله لهم على جليل الأعمال وحقيرها، وهذا من شدة إيمانهم وإيقانهم (١)، وذلك لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: «لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ يَقَدِ مَا فِي السَّمَوَةِ وَمَا فِي الشَّهُ فَيَعْفِرُ لِمَن يَشَاكُمُ وَلِي تُبْدُوا مَا فِي الشَّهُ فَيعْفِرُ لِمَن يَشَاكُمُ وَلِيمَ اللهُ عَلَى عَلَى وَاللهُ عَلَى الله عليه وسلم ﴿ يَقَدِ مَا فِي الشَّمُ الله عليه وسلم قَلْمَ مَا فِي السَّمَ الله عليه وسلم قَلْمَ مَا فَيعُفِرُ لِمَن يَشَاكُمُ وَلِيمَ اللهُ فَيعُفِرُ لِمَن يَشَاكُمُ وَلِيمَ اللهُ فَيعُفِرُ لِمَن يَشَاكُمُ وَلِيمَ اللهُ عَلَى كُلِيمُ وَلَدِيرُ ﴾ ويُعَدِّرُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَيْهُ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَيْكُمُ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَا اللهُ عَلَا اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَا اللهُ عَلَا اللهُ عَلَا اللهُ عَلَى اللهُ عَلَا الله

قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بركوا على الركب، فقالوا: أي رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير)، قالوا: سمعنا

<sup>(</sup>۱) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ١١٤، مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ١٠٤، الجامع لأحكام القرآن، القرآن، القرطبي ٣/ ٤٢١، البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٧٥٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٢٥.

<sup>(</sup>٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٦٥.

.[447]

وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقترأها القوم، ذلت بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها: ﴿ عَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِيهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ عَامَنَ بِاللهِ وَمَلَتَهِ كَلِهِ وَكُلُهِ وَرَبِيهِ وَلَكُهُ مِن وَرَسُلِهِ وَمَلَتَهِ كَلِهِ وَكَالُوا وَرَسُلِهِ وَمَلَتَهِ كَلِهِ وَكَالُوا وَرَسُلِهِ وَمَلَتَهِ كَلِهِ وَكَالُوا وَرَسُلِهِ وَمَلَتَهِ كَلِهِ وَمَلَتَهِ كَلِهِ وَكَالُوا وَرَسُلِهِ وَمَلَتَهِ كَلِهِ وَمَلَتَهِ كَلِهِ وَمَلَتَهِ كَلِهِ وَكَالُوا وَرَسُلِهِ وَمَلَتَهِ كَاللهِ وَمَلَتَهِ كَلِهِ وَمَلَتُهُ وَقَدَالُوا وَرَسُلِهِ وَمَلَتَهِ وَقَدَالُوا وَرَسُلُهُ وَلَيْكَ الْمَصِيدُ ﴾ والله والل

فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، فأنزل الله عز وجل: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسُعَهَا لَهُ نَفْسًا إِلَّا وُسُعَهَا لَهَ الله عز وجل: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسُعَهَا لَهَ اللهُ مَا كُسَبَتُ وَعَلَيْهَا مَا أَكْتَسَبَتُ رَبِّنَا لَا تُولِيقًا مَا أَكْتَسَبَتُ رَبِّنَا لَا تُعْمَا أَنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. قال: نعم: ﴿ رَبِّنَا وَلَا تَعْمِلُ عَلَيْنَا ﴾ [البقرة: كمّا حَمَلُتَهُ عَلَى الذِينَ مِن قَبِلِنَا ﴾ [البقرة:

قال: نعم: ﴿رَبُّنَا وَلَا تُحَمِّلُنَا مَا لَاطَاقَةَ لَنَا بِهِهِ ﴾[البقرة: ٢٨٦].

قال: نعم: ﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَأَغْفِرْ لَنَّا وَأَغْفِرْ لَنّا وَأَرْحَمْنَا أَلَتَ مَوْلَكَنَّا فَأَنْصُرْنَا عَلَى ٱلْفَوْمِ وَأَرْحَمْنَا أَلَتَ مَوْلَكَنَّا فَأَنْصُرْنَا عَلَى ٱلْفَوْمِ الْحَكَفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: نعم»(١). ويموجب هذه الحديث اختلف المفسرون والفقهاء هل هذه الآية منسوخة،

القول الأول: ذهب الإمام علي وابن عمر وابن مسعود وكعب الأحبار والشعبي ومحمد بن كعب القرظي وعكرمة والنخعي ومحمد بن كعب القرظي وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة وآخرون من الصحابة رضي الله عنهم إلى أن هذه الآية منسوخة؛ لأنها تثبت الحساب على الوساوس وخواطر النفوس، فرجع معنى هذه الآية إلى كونه تعالى عالماً بكل ما في الضمائر والسرائر (۱)، كما في قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا البقرة: وَالبقرة: ﴿ وَالْعَلَمُوا البقرة: ﴿ وَالْعَلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاعْدَرُوهُ ﴾ [البقرة: البقرة:

القول الثاني: ذهب ابن عباس وعكرمة والشعبي ومجاهد وعائشة رضي الله عنهم: إلى أن هذه الآية محكمة غير منسوخة، وأن الله تعالى يحاسب خلقه على ما عملوا من عمل وعلى ما لم يعملوه مما ثبت في نفوسهم فأضمروه ونووه وأرادوه، فيغفر للمؤمنين ويأخذ به أهل الكفر والنفاق، ورجح هذا القول الإمام الطبري وذهب إلى أن الآية محكمة غير منسوخة (٤).

ويكون القول الراجح هو: أن الآية محكمة غير منسوخة، وأن المراد من قوله

أو محكمة على قولين هما:

<sup>(</sup>٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٠٤/٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٤٢١، البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٧٥٠.

<sup>(</sup>٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٦٧.

<sup>(</sup>٤) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/٣٦٠، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٣٨٩

<sup>(</sup>۱) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿ وَإِن تُبدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ ﴾ ، رقم ٤٥٤٥، ٣٣/٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان قوله تعالى: ﴿ وَإِن تُبدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ ﴾، رقم ١١٥/١١٥.

في الحديث: «نسخها الله» ، أي : أزال ما أخافهم، وأن آية: ﴿ لَا يُكُلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلّا وُسُمَهَا ﴾ ليست ناسخة، ولكنها موضحة، ويؤيد ذلك الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تكلم أو تعمل)(١)، ويدل على منع القول بالنسخ الأدلة التالية:

إن قوله تعالى: ﴿ يُتُحَاسِبَكُم بِهِ اللّه ﴾
 خبر، والأخبار لا تنسخ عند جمهور الأصوليين (٢).

إن كسب القلب وعمله مما دل الكتاب والسنة والإجماع والقياس على ثبوته والجزاء عليه، ظهر أثره على الجوارح أم لم يظهر، كقوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُمُ مِا لَلّهُ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم مِا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

٣. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُوَّادَ
 كُلُّ أُولَتِهِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْفُولًا ﴾ [الإسراء:

(۱) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العتق، باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق ونحوه، ولا عتاقة إلا لوجه الله، رقم ٢٥٢٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب، إذا لم تستقر، رقم ١٢٧،

(٢) انظر: البحر المحيط في أصول الفقه، بدر الدين الزركشي ٥/ ٢٤٧، المسودة في أصول الفقه، آل تيمية ص ١٩٦، شرح الكوكب المنير، ابن النجار الحنبلي ٣/ ٢٦.

٢٣].

إن الوساوس العارضة وحديث النفس الذي لا يصل إلى درجة القصد الثابت والعزم الراسخ لا يدخل في مفهوم الآية، كما قال المحققون.

 ٥. إن تكليف ما ليس في الوسع ينافي الحكمة الإلهية.

وأما قول الصحابة والتابعين رضي الله عنهم بالنسخ فهو مما يتفق مع علو مرتبة هؤلاء وكمالهم، حتى إنهم ليجدون أن وسوسة النفس مما تخضع للحساب، وهم يريدون التطهر من كل آثار الإثم، لذا قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين، فتحرجهم من باب كمال التزكية وتمام الطهارة واعتقاد النقص في أنفسهم (٣).

واختبار سرائر الصدور يظهر ما كان في القلوب من خير وشر على صفحات الوجوه ، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُ وُجُوهُ وَتَسَوَدُ وُجُوهً فَكُمَ اللَّذِينَ السّودَت وُجُوهُهُمْ أَكُفَرَتُمُ بَعْدَ إِيمَانِكُمُ فَلُوفُوا اللّهَ اللّهِ اللّهِ عَمْدُ إِيمَانِكُمُ فَذُوفُوا اللّهَ اللّهَ اللّهُ عَمْدُ اللّهُ عَلَيْدُ اللّهُ عَمْدُ اللّهُ عَمْدُ اللّهُ اللّهُ عَلَيْدُ اللّهُ عَمْدُ اللّهُ الللّهُ الللللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ ال

<sup>(</sup>٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٣/ ١٢٨.

<sup>(</sup>٤) انظر: جامع البيان، الطبري آ / ١١٤، مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ١٠٤، البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٧٠٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير / ٥٦٥.

## أثر إفشاء السرعلى الفرد والمجتمع

إن المحافظة على الأسرار من أعظم الأمانات في العلاقات؛ ليس على المستوى الفردي فحسب؛ بل على مستوى الدول والحكومات، وكم من أسرار كشفت للخصوم والأعداء؛ فسببت الذل والهوان لأفراد وشعوب وأمم!

ومن هنا فرعاية الإسلام للمحافظة على الأسرار يستهدف من ورائها تكوين المجتمع الإسلامي، ووضع التشريعات الضابطة لحماية العلاقات وتنميتها أمر لازم لدوام الحياة الاجتماعية وتقدمها من الناحية المادية والمعنوية.

ولو أهملت المبادئ الأخلاقية والاجتماعية، وسمح للخيانة، وفشو الأسرار بالانتشار؛ لزالت المعاني الإنسانية العظيمة، كالأمانة، وكتمان الأسرار من حياة الناس، وتحولت الحياة الاجتماعية إلى جحيم لا يطاق (۱).

وينبغي التنبيه في هذا المقام إلى أن المحافظة على الأسرار مشروطة بأن لا تؤثر في حق الله تعالى أو حق المسلمين، وإلا عدّ ذلك من الخيانة لحق الله تعالى، أو

حق المسلمين، وليس حفظ الأسرار هنا من الأمانة (٢).

وقد عالج القرآن الكريم إفشاء الأسرار وبيَّن أثر ذلك في المجتمعات والدول والأفراد من جميع الجوانب ،سواء العامة أو الخاصة في الأمور السياسية والعسكرية أو الاجتماعية والفردية كما يأتي:

أولًا: عالج القرآن الكريم إفشاء الأسرار وبيَّن أثر ذلك في المجتمعات والدول والأفراد في الأمور السياسية والعسكرية:

وذلك حين نهى الله المؤمنين أن يخونوا أماناتهم فيما بينهم، أو فيما أسر الرسول إليهم من السر، وهم يعلمون أن الخيانة ليست من شأن الكرام، بل هي من شأن اللتام، في قوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا آمَننَتِكُمُ وَأَنتُمُ لَا تَخُونُوا آمَننَتِكُمُ وَأَنتُم تَمَانَ لَا الله الله الله وَالرّسُولَ وَتَخُونُوا آمَننَتِكُمُ وَأَنتُم تَمَانَ لَا الله الله الله وَالرّسُولَ وَتَخُونُوا آمَننَتِكُمُ وَأَنتُم تَمَانَ لَا الله وَالرّسُولَ وَتَخُونُوا آمَننَتِكُمُ وَأَنتُم الله الله وَالرّسُولَ وَتَخُونُوا آمَننَتِكُمُ وَأَنتُم الله وَالرّسُولَ وَتَخُونُوا آمَننَتِكُم وَأَنتُم الله الله والله الله والله الله والله والله

ومن هنا يكون إفشاء السر خيانة صغرى أو كبرى كما يأتي:

<sup>(</sup>۱) انظر: مقال: المحافظة على الأسرار، عبداللطيف الحسين، منشور في مجلة البيان، تصدر عن المنتدى الإسلامي، العدد ١٩٧، السنة ١٩، ص ٢٨.

<sup>(</sup>٢) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حبنكة الميداني ٢/ ٣٦١.

رضى الله عنه، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاصر يهود قريظة إحدى وعشرين ليلة، ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أن ابعث إلينا أبا لبابة نستشيره في أمرنا، فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم، فقالوا: يا أبا لبابة، ما ترى أننزل على حكم محمد؟ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه - أنه الذبح فلا تفعلوا -، ثم ندم بعد ذلك وقال: والله! ما زالت قدماي حتى علمت أني قد خنت الله ورسوله»(١)، فإن أبا لبابة رضى الله عنه كان يعلم الحكم في يهود بني قريظة بأنه الذبح! ولكنه أشار بيده إلى حلقه، فكان ذلك منه خيانة لأمانة المجلس، ويكون إفشاء السر في مثل هذه الحالة خيانة صغرى لعدم الإفصاح بالسر (٢). ٢. كشف السر خيانة كبرى: لأن حفظ أسرار المجالس أمانة كبرى يجب رعايتها، وعدم إنشاء ما يدار فيها من أمور وأخبار مهمة ربما يصل كشفها

وسلم بوجهته إلى مكة، وهو ما جاء في سبب نزول (٤) قوله تعالى: ﴿يَكَأَيُّهَا النِّينَ اَمَنُوا لَا تَنْخِدُوا عَدُوْى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءً تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوْدَةِ وَقَدَ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُحْرِجُونَ الرّسُولَ وَإِيّاكُمْ أَن تُوْمِنُوا بِاللّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنْمُ خَرَجْتُدْ جِهندافِ سَبِيلِ وَآنِيغَاءً مَرْضَافِي ثُيْرُونَ إليهم بِالْمَودَةِ وَأَنَا أَعَلَمُ بِمَا مَرْضَافِي ثَيْرُهُونَ إليهم بِالْمَودَةِ وَأَنَا أَعَلَمُ بِمَا الْفَقَيْتُمُ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلُهُ مِنكُمْ فَقَدْ صَلً سُواءَ السّبِيلِ ﴾ [المستحنة: ١]. شواء السّبيل ﴾ [المستحنة: ١]. أخلاق المنافقين الذين يكيدون ويمكرون بالمؤمنين، كما ذهب إلى

إلى الخيانة الكبرى، كما في قصة

حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه في

نقله لخبر رسول الله صلى الله عليه

وسلم بفتح مكة إلى زعمائها<sup>(٣)</sup>؛ إذ إن

حاطبًا ممن أخبره النبي صلى الله عليه

أن افشاء السر والإذاعة به من أخلاق المنافقين الذين يكيدون ويمكرون بالمؤمنين، كما ذهب إلى ذلك جمهور المفسرين، أو من أخلاق ضعفة المسلمين الذين يفشون الأسرار من غير معرفة بالأضرار الناجمة عن ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا خُمَّةً مُّمِّ مِّرَا الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا لَا مُعْوَلًا مَا الْحَوْفِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا لَا الْحَوْفِ أَذَاعُوا لَا الْحَوْفِ أَدَاعُوا لَا الْحَوْفِ أَذَاعُوا الْحَوْفِ أَذَاعُوا لَا الْحَوْفِ أَدَاعُوا لَا الْحَوْفِ أَدَاعُوا الْحَوْفِ الْمَا الْحَوْفِ الْمَاحِدِ الْحَوْفِ الْمَاحِدِ الْحَوْفِ الْمَاحِدِ الْحَوْفِ الْمَاحِدِ الْحَوْفِ الْمُعْلَى الْحَوْفِ الْمُعْلَى الْحَوْفِ الْمَاحِدِ الْحَوْفِ الْمُعْلَى الْحَوْفِ الْمُعْلَى اللَّهُ الْحَوْفِ الْمُنْ الْعَلَاقِ الْحَوْفِ الْحَوْفِ الْمَاحِدِ الْحَوْفِ الْمَاحِدِ الْمَاحِدِ الْحَوْفِ الْمُعْلَى اللَّهُ الْمَاحِدِ الْمَاحِدِ الْحَدِي الْعَلَى اللَّهُ الْمَاحِدِ الْحَدَانِ الْحَدَانِ الْحَدَانِ اللَّهُ الْمَاحِدُ اللَّهُ الْمَاحِدُ اللَّهُ الْمَاحِدُ الْحَدِي الْحَدَانِ اللّهُ الْمَاحِدُ اللَّهُ الْمَاحِدِ اللَّهُ الْمَاحِدُ اللَّهُ الْمَاحِدُ اللّهُ الْمَاحِدُ اللّهُ الْحَدَانِ اللّهُ اللّهُ الْحَدَانِ اللّهُ اللّهُ

<sup>(</sup>٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، بإب فضل من شهد بدراً، رقم ٣٩٨٣.

<sup>(</sup>٤) أُخرِجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء ﴾، رقم ١٤٥ / ١٤٥ .

وانظر: أسباب النزول، الواحدي ص ٣٤٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤١.

<sup>(</sup>۱) انظر: جامع البيان، الطبري ۱۳/ ٤٨٠، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٤٥٣، مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٧٥، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٧.

<sup>(</sup>۲) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٤٨٠، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٤٥٣، مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٧٥، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٥١.

بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَى أَوْلِي كانوا إذا بلغهم خبر عن سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمن وسلامة أو خوف وخلل أذاعوا به ، ومعرفتهم بأمور الحرب ومكايدها(٢). ثانيًا: الأضرار الناجمة على الفرد

فقد جسد ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْضَعَنْ بَعْضٌ فَلَمَّا نَبَّأُهَا بِهِ - قَالَتْ مَنْ أَبْأَكَ هَذَا قَالَ نَتَأْنِي ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ

ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمُّ وَلَوْلَا فَضَلُّ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَانَّبَعْتُمُ ٱلشَّيَطُانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ٨٣](١). وكانت إذاعتهم مفسدة، ولو ردوا ذلك الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أولى الأمر منهم- وهم كبراء الصحابة البصراء بالأمور أو الذين كانوا يؤمرون منهم- لعلمه :لعلم تدبير ما أخبر وا به ، الذين يستنبطونه: الذين يستخرجون تدبيره بفطنهم وتجاربهم والمجتمع عن إفشاء الأسرار الاجتماعية، وكيف عالج القرآن الكريم ذلك:

اللهُ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَّا وَإِن تَظَاهَرًا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَنَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ ٱلْمُؤْمِنِينِ وَٱلْمَلَيْكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ١ عَسَى رَيُّهُ وَإِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلْهُ وَأَزْوَجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَتِ تُمَوْمِنَاتِ قَلِنَاتِ تَلِيَاتِ عَلِدَاتِ سَيْحَتِ ثَيْبَاتِ وَأَنِكَارًا ﴾ [التحريم: ٣-٥].

وبعض أزواجه هي: حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعدل عن ذكر اسمها ترفعاً عن أن يكون القصد معرفة الأعيان، وإنما المراد العلم بمغزى القصة وما فيها مما يجتنب مثله أو يقتدى به، وكذلك طي تعيين المنبئة بالحديث، وهي عائشة رضى الله عنها.

وذكرت حفصة رضى الله عنها بعنوان بعض أزواجه للإشارة إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم وضع سره في موضعه ؛ لأن أولى الناس بمعرفة سر الرجل زوجه، وفي ذلك تعريض بملامها على إفشاء سره؛ لأن واجب المرأة أن تحفظ سرَّ زوجها إذا أمرها بحفظه أو كان مثله مما يجب حفظه (٣).

قال جماعة المفسرين: إن النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى الغيرة والكراهية في وجه حفصة، أراد أن يترضاها، فأسرَّ إليها

أحدهما: تحريم مارية على نفسه أو ما حرم على نفسه مما كان الله جل ثناؤه قد

<sup>(</sup>١) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/٥٦٨، النكت بشيئين: والعيون، الماوردي ١/١٥، مفاتيح الغيب، الرازي ١٥٣/١٠، البحر المحيط، أبو حيان ٣/٧٦٦)، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير

<sup>(</sup>٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٥٤١.

<sup>(</sup>٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٣٥٢.

أحله له من شربه العسل عند زينب بنت جحش فلن أعود له، وقد حلفت لا تخبري بذلك أحداً يبتغي بذلك مرضاة أزواجه، وحلفه على ذلك.

والثاني: تبشيرها بأن الخلافة بعده في أبي بكر وأبيها عمر رضي الله عنه (١).

وعلى ذلك يجب حفظ أسرار الزوجين: الرجل والمرأة مؤتمنان على حفظ أسرار كل منهما، ويجب عليهما أن يحرصا أشد الحرص على عدم إفشائها، ولا شك أن حفظ سر الزوجين من أخص خصائص كل منهما تجاه الآخر، ومن أكثرها إسهامًا في ديمومة الحياة الزوجية واستقرارها، ويدخل في المحافظة على الأسرار: ستر العورات في العلاقات الزوجية، كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة، الرجل يفضي إلى امرأته، وتفضي إليه، ثم ينشر سرها) وفي رواية عنه أيضاً: (إنّ من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة، الرجل يفضى إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرّها) 🗥.

وكذلك يعتبر نقل النميمة من شخص إلى آخر من إفشاء السر، فمن قال لآخر: فلان يقول فيك أو يفعل فيك<sup>(٣)</sup>، فإن ذلك من إفشاء السر بالإضافة إلى كونه نميمة والكل محرم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ مَا يُوَدُّونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنِينَ بِغَيْرِ مَا اللهِ مَا اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ ال

والمحافظة على الأسرار أمانة عظيمة يجب الوفاء بها، وقد حثنا الشرع عليها، وحدِّرنا من فشو الأسرار والتفريط فيها، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْمَهَدِّ إِنَّ ٱلْمَهَدَكَاتُ مَسْتُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مُمْ لِأَمْنَتُهِمْ وَعَهْدِهِمْ زَعُونَ ﴾ [المعارج: ٣٢].

فعلى من أودع سرًّا أن يحافظ عليه ولا يفشيه أبدًا، وإلا أصبح خائنًا، لأن إفشاء السر صفة مشابهة للمنافق الذي إذا اؤتمن على شيء خانه، كما في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أربعٌ من كنّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النّفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر،

<sup>(</sup>۱) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حرم طعامه، رقم ٢٦٩١، ٦/ ١٥٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته، ولم ينو الطلاق، رقم ٢١٤٧٤، ٢/ ١١٠٠.

<sup>(</sup>۲) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب تحريم إفشاء سر المرأة، رقم ١٤٣٧،

<sup>.1.7./</sup> 

<sup>(</sup>٣) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ١١٣/٢.

<sup>(</sup>٤) انظر: سبل السلام، الصنعاني ٢/ ٢٧٨.

# وإذا خاصم فجر)(١).

بالإضافة إلى أن حفظ الأسرار وكتمانها من الأخلاق العظيمة التي تعلي من شيم أصحابها وشمائل صفاتهم، فقد كان الصحابة والصحابيات رضي الله عنهم مضرب المثل في حفظ الأسرار التي يؤتمنون عليها، فهذا حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أمين سرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنافقين، وكان يقال له: صاحب السّر الذي لا يعلمه أحدٌ غيره (٢).

بالإضافة إلى أن في حفظ الأسرار وكتمانه عوناً على قضاء الحوائج ودفعاً للحسد والمكر وغيرها من الآفات والمخاطر التي تنتج عن إفشاء الأسرار والإعلان بها، وفي ذلك تظهر الحكمة والغاية التي أوصى بها النبي صلى الله عليه وسلم الناس بقوله: (استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود) (٣).

وفي الجملة ينبغي المحافظة على الأسرار الخاصة والعامة بكل الوسائل، وخاصة الأسرار العامة التي تهم الدول والمجتمعات ويؤدي إفشاؤها إلى دمار الشعوب، وخاصة مع وجود وسائل التنصت والتجسس المتطورة، والتي يجب الاحتراز والحذر منها بكل الوسائل الممكنة.

## موضوعات ذات صلة:

الإخلاص، الإنفاق، الحساب، العلن، الكتمان، النجوى، النفاق

وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ١٤٥٣، ٣/ ٤٣٩.



<sup>(</sup>۱) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامات المنافق، واللفظ له، رقم ٣٤، ١/١١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم ٥٨، ١/٧٨.

<sup>(</sup>٢) أُخرَجُه البخاري في صحيحه كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمار وحذيفة رضي الله عنهما، رقم ٣٧٤٢، ٥/٥.

 <sup>(</sup>٣) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم ٥٥، ٣ ، ٢٤٥٥ والبيهقي في شعب الإيمان، رقم ٢٢٢٨، ٩/ ٣٤.